رواية قصيرة

طموحات خائبة

زياد طارق العتائقي

٢٠٢٣

رواية قصيرة

طموحات خائبة

زياد طارق العتائقي

٢٠٢٣

إلى أولئك الذين ظنوا أن في الغرب حياة مُثلى فباعوا ما عندهم بثمن بخس

فباتوا تدغدغهم أحلام العصافير. عودوا إلى بيوتكم وناموا على بلاط الواقع تقويما وإصلاحا .

بسمه تعالى

طموحات خائبة

صبيح شاب عراقي من عائلة فقيرة، بالكاد يتمكن والده من تأمين معيشته هو وأخته وثلاثة أخوة صغار، لقد كان هو وأخوته يتكورون في زاوية الغرفة عندما ينامون في بيتهم ذي الغرفة الواحدة الواقع في محلة الجامعين[١]، أما أخته فكانت تأخذ الزاوية البعيدة متمتعة ببطانيتها ومخدة الريش على فجة[٢] قد بان منها السِّدَى واللُّحْمَة[٣]، أما الأبوان فكانا يتقاسمان المكان، الأم مع ابنتها والأب قرب أولاده بينهما فجوة قليلة يشغلانها عندما تخمد الأنفاس ويعلو الشخير.

كان أبوه يملك عربة صغيرة يضع فيها صفائح النفط يجول فيها بين الأزقة، وأمة كانت تخبز للجيران في تنورها المبني على سطح الغرفة.

كانت عائلة فقيرة متآلفة، فالفقراء يتقاسمون يومهم ما بين العمل المضنى و الاجتماع على مائدة الطعام التي تتشابك عليها الأيدي حدَّ العراك حينما ينفض الأب يده من الطعام، حامدا ربة، ليخرج إلى المقهى لشرب الشاي، ثم ينفض العراك حول (الصوبة)[٤] حينما تبدأ الأم بحكاية جديدة ورثتها من أبويها و مآسي الأقدار المتقلبة ما بين الحزن و الفرح، ثم يهجع الجميع عندما يأتي الأب لينام، فينطفئ المصباح المتدلي من أحد جذوع السقف، فالصبح يُنذر بيوم عمل شاق.

كان صبيح على الرغم من فقرة يحمل نفساً تواقة للخروج من ذلك العالم الدافئ الفقير، فالفقر والدفء يجتمعان متآلفين بين الصغار أما الشباب ففقرهم صاقع لا يكاد يُشعرهم بالراحة حتى وهم يلتحفون أغطية مشتركة وبطن أثقلتها المثرودة[٥].

---

١ الجامعين من محلات الحلة القديمة تقع يمين شط الحلة بتجاه النهر.

٢ الفجة بساط مستطيل الشكل ٩٠×٢٠٠سم تقريبا مصنوع من الصوف الملون بزخارف شعبية.

٣ السِّدَى هي الخيوط الطولية في النسيج واللُّحْمَة هي الخيوط العرضية الداخلة ما بين الخيوط الطولية.

٤ تسمية عراقية للمدفأة النفطية.

٥ المثرودة أكلة الفقراء تحتوي على بقايا الخبز تُداف بالماء والملح والبهارات والبصل المثروم وتطبخ بالسمن على النار.

كان صبيح يسعى بما أُتي من قوة لتغيير الحال حتى وإن كان ذلك بالنظر إلى (شيتات)[٦] الأفلام التي يراها معلقة قبالة سينما (الفرات)[٧] على جدران علوة[٨] الأسماك، أو عندما يتجول بها عمال السينما وهم يرفعونها على عمود خشبي طويل يحملهم (الربل)[٩] بين شوارع الحلة وهم يصيحون معلنين عن الفيلم الذي سيعرض قريبا. وربما يجتذبون رواد السينما بعرض أكثر من فيلم، فينادون (فلمان في بطاقة واحدة). لم ينتبه صبيح من صفنته تلك إلا على وكز أبيه (باوع دربك) [١٠] فقد كان يخرج معه لمساعدته عندما يعود من المدرسة. لقد كان حلمه الوحيد أن يكون ممثلاً يقف أمام صوفيا لورين، أو هند رستم أو يتقاتل مع محمود المليجي، وربما يتشاطر البطولة مع (ريو دي نيرو) الذي يحبه كثيرا ويحتفظ له بمصورات يحصل عليها من هنا وهناك.

ولكن أنّى له ذلك وهو يضلع بمشيته، فالحذاء لم يعد يكفي قدمه التي نمت كثيرا وسرواله قد شبع من الترقيع، فالفقراء على الرغم من (مثرودتهم) ينمون سريعا ويتكاثرون، فأطفالهم تملأ الأزقة بصراخ اللعب، حتى أن الأمراض المستوطنة التي تأتيهم من كل فج عميق لم تعد تنفع معهم، وكأنهم عشب الأرض كلما جزّوه زاد انتشارا وطولاً.

لكنه برغم ذلك لم يخف حلمه ذاك عن أبية الذي يقابله بالابتسام وفي عينه دمعة متحجرة وبكاء مكتوم يعتصر صدره، فابنه طموح وله الحق في ذلك، ولكن ما السبيل لتلبية احتياجاته والفقر يلف ارجاء حياته، فكان يكرر القول (الله كريم بويه).

***

في يوم يبدو فيه أن حظ صبيح قد تبسم له، عندما خرج ناظر محطة (البانزين) منادياً:

- أبو صبيح هل توجد لديك بطاقة شخصية؟

أبو صبيح: نعم عمي لماذا؟

---

٦ تسمية عراقية للإعلانات الدعائية المصورة للأفلام.

٧ مبنى يقع في نهاية شارع المكتبات في محلة السنية مركز الحلة، هُدمت في نهاية السبعينيات.

٨ علوة: مكان محدد لبيع وشراء الأسماك، كذلك بيقة المواد لها مكان خاص يسمى علوة ويضاف اليها نوع المباع كقولنا(علوة الخضار)مثلا.

٩ عربة بسقف متحرك وأربعة عجلات خشبية مؤطرة بطوق حديدي ثم طوق من المطاط، يجرها حصانان.

١٠ لهجة عراقية معناها انتبه إلى الطريق.

الناظر: أترك عربتك هنا وأذهب سريعا وأتني بها.

أبو صبيح: ما الأمر أستاذ؟

الناظر: خير إن شاء الله، أذهبْ.

ركن أبو صبيح عربته المحملة بصفائح النفط قرب سياج المحطة وذهب مسرعاً إلى بيته ليجلب البطاقة، وعندما سلمها للناظر الذي كان قد هيأ بعض الأوراق وطلب منه أن يبصم، وأبو صبيح لا يدري ما الخبر.

عندما أنهى الناظر الاجراءات قال له:

- مبارك لك، غداً تعال مبكراً لتعمل هنا.

فرح ابو صبيح كثيرا فقد آن لقدميه أن ترتاح من اللف والدوران في الأزقة.

في صبيحة اليوم التالي كان حضور (أبي صبيح) مبكراً إلى المحطة، وعندما حضر الناظر علمّه كيف يعمل على مضخة النفط الجديدة، طالباً منه أن يكون أمين على المبالغ التي يستحصلها من الزبائن.

تنفست عائلة أبي صبيح عبير الراحة على قدرها وامتلأت البطون بشيء من اللحم والسمك، ونام الأخوة على فراش متنعمين بغطاء لكل واحد منهم، فقد كان عمل (أبي صبيح) في المحطة وتجوال صبيح بين الأزقة يبيع النفط حريا بأن يلقي بظلال الدعة عليهم. من هنا تطاولت آمال صبيح إلى معهد الفنون الجميلة، فقد اجتهد أن يجمع ما بين الدراسة والعمل، ولكن برغم ذلك فإن العيال عندما كبروا كبرت معهم همومهم ومصاريفهم، وضاقت عليهم غرفة الدار وفسحته فصاروا يأملون بيتاً أكبر، وربما تمكن صبيح من الحصول على غرفة مستقلة يملأها بصور الممثلين الذين يحبهم ورف من الكتب وفسحة تمكنه من أداء بعض الأدوار التي كان يشاهدها في سينما الفرات عندما يتشدق بالأعذار أمام أمه وأبيه ليشاهد ممثلين لطالما حلم بهم.

في ذلك اليوم عندما نجح صبيح في الصف الثالث المتوسط وجلس مع أبيه وأمه في باحة بيتهم الجديد يشربون شاي المساء ليتدارسوا فيما بينهم أمر صبيح وذهابه إلى بغداد لدراسة الفن، قلبوا الأمور يميناً و شمالا و حسبوا المال بدقة متناهية و اقترحوا تنازلات تمكنه من تحقيق ما يصبو إليه، فقد كان (أبو صبيح) أبا حنونا، يحب أن يرى في أولاده ما لا يراه في نفسه وأم صبيح أيضاً كانت تحثهم على الدراسة والعمل حتى يخرجوا من دائرة الفقر التي أُقحموا فيها بغير ذنب. فالفقر والطموح يجتمعان متنافسين أيهما يقتل الآخر.

لم تثمر الجهود والمقترحات عن شيء، فالفقر قد ضرب مفاصل حياتهم وتجذّر فيها، من أين يأتون بالمال الكافي (لصبيح) حتى يتمكن من السفر إلى بغداد والمعيشة فيها؟ من أين يعوضون ما يدره عمله من مال ليساعد أباه وإخوته؟

فانفض الاجتماع وكل واحد منهم يحمل هماً موجعاً وحزناً عميقاً، وها هو طموح صبيح يتكسر على صخرة الفقر، وها هو طموح أبيه يذوي كمدا، وها هي آمال أمه تحترق بحرقة عينيها وبكائها المكتوم.

في صبيحة تلك الليلة عندما اجتمعوا على مائدة الإفطار كان (صبيح) قد حزم أمره وقرر أن يجلو الحزن عن عيون والديه عندما أخبرهم أنه عدل عن فكرته وقرر أن يجّد ويجتهد في العمل حتى يوفر مبلغاً يمكّنه من تحقيق طموحه ولو بعد حين، فالفقراء يؤثرون على أنفسهم على الرغم من فقرهم.

تهللت العيون بهذا القرار فرحاً يُخفي لوعة وحيرة، احتضنته أمه بقوة وقبّله أبوه داعيا له بالتوفيق والنجاح لما يحمل في نفسه طيبة وإيثاراً يستحق الحمد والثناء.

انكب صبيح على العمل وراح يبحث عن مصادر أخرى أكثر نفعا فكان صباحه حمّالا عند تجار الحبوب وبعد الظهيرة يتجول بعربته بين الأزقة يبيع النفط.

***

كانت عائلة أبي صبيح محبوبة بين الجيران ولا سيما (أم صبيح) التي كانت متعاونة مع النساء في أفراحهم وأتراحهم، وعندما طلبت من جارتها خيّاطة العباءة أن تعلم ابنتها فاطمة، رحبت بالفكرة وقالت لها:

- أنت طيبة يا (أم صبيح) ومتعاونة معنا وحق علينا أن تعاون معكِ، فلتأت (فاطمة) غداً صباحاً لأرى ما يمكن أن تتعلمه.

فرحت (فاطمة) بالأمر وعزمت على تعلم تلك المهنة، عسى أن تتمكن من مساعدة نفسها وعائلتها وهكذا اجتمعت الجهود لترفع مستوى العائلة الاقتصادي فكان اجتماعهم في المساء حول المدفأة وهم يشربون الشاي أحاديث متنوعة كتنوع أعمالهم.

أما (صبيح) الذي وجد في تعدد مصادر دخل الأسرة متنفساً لآماله وطموحاته التي تحجرت بفعل الفقر، أما الآن فقد دبتْ فيها حياة الأمل لتعيدها غضة طرية. هكذا بقيت العائلة تعمل وتكدّ لعلها تتمكن من تحقيق طموحاتها فللفقراء طموحات أيضاً لكنها لا تتجاوز مقدار أغطيتهم.

ذات ليلة عندما اجتمعت العائلة كعادتها كان (صبيح) يحوص في جلسته يلتفت يميناً وشمالاً تتجول عيناه في أرجاء الدار، يتصفح وجوه إخوته وأبوية، فبادر أبوه قائلاً:

-اليوم أجدك على غير عادتك (يا صبيح)، كل يوم أنت تمازح إخوتك وتُضحكنا بمواقف مرت بك، واليوم أجدك ساهماً مشغول البال فما الأمر؟

صبيح: نعم يا والدي كما تفضلت، في نفسي شيء أود قوله لكن أخشى أن لا يروق لكم، وأنا لا أريد أن أزعجكم.

قالت الأم: تكلم يا ولدي فإن كان الأمر مقدوراً علية ساعدناك، وإن لم يكن فأنت أول العاذرين.

الأب: هيا تكلم، فلم يعد للصمت وجه مقبول، وسنظل قلقين متسائلين، فأرحنا وتكلم هيا.

صبيح: اليوم التقيت بصديقي (محمود) وقد كان مشغولاً بتجهيز مستلزمات عودته إلى (اسبانيا) من بعد انتهاء اجازته، فهو يدرس هناك وحينما سألته عن الدراسة، أخبرني أن الأمر على الرغم من صعوبته إلا أنه يمكن تحقيقه.

الأب: نعم أكمل.

صبيح: فسألته عن متطلبات السفر فقال لي: قبول من إحدى المعاهد ومعاملة جواز السفر.

الأم: (وقد فهمت مرادة) ومن أين لك القبول؟

صبيح: (وقد تفاجأ أن الأمر وصل إليهم دون عناء) يجب أن ابعث برسالة إليهم أُبين فيها المرحلة الدراسية، ليرسلوا لي قبول ابتدائي، وعندما أصل إلى هناك يجب عليَّ أنجاز بقية المعاملة.

الأب: وكم تبلغ كلفة السفر يا (صبيح) أفندي؟

صبيح: يقول صديقي هناك عدة طرق للوصول إلى (اسبانيا) وكل طريق له سعرة الخاص، والاختيار للمسافر.

الأب: وهناك كيف ستتمكن من تأمين معيشتك؟

صبيح: صديقي يقول العمل، فهم يسمحون للطالب أن يعمل خارج أوقات الدراسة.

الأب: هذا موضوع يحتاج إلى تفكير، ولكن هل تتمكن من مراسلة المعهد ونقرر بعد ذلك أمر السفر؟

صبيح: نعم أبي فالرسالة تحتاج إلى وقت حتى تصل إليهم ومن ثم الجواب.

الأم: فراقك صعب علينا يا ولدي.

الأب: نعم صعب علينا لكنّا نتمنى أن تحقق طموحك وتعود إلينا وأنت ممثل كبير.

صبيح: نعم يا أمي وانا يصعب عليّ فراقكم لكني أودّ أن أختصر الطريق، فبدلاً من مصاريف الدراسة في بغداد ومن ثم السفر، أذهب مباشرة إلى هناك وأرى ماذا يؤول إليه الحال.

الأب: دعنا نفكر بالأمر، ريثما يصل الجواب، حينها سنقرر ماذا نعمل.

صبيح: أشكرك يا أبي، أشكركِ يا أمي، لقد افرحني كثيراً رأيكم، غداً سأذهب إلى صديقي (محمود) وأعرف منه العنوان وأطلب منه مساعدتي للحصول على القبول حينما يعود إلى (مدريد). فقد مضى عليه عام كامل هناك وهو يعرف كيف ينجز الأمر على أتمه.

الأب: نعم، دعنا الآن نذهب للنوم، فالعمل ينتظرنا مبكرين تصبحون على خير.

***

كانت لحظات الوداع في مطار بغداد مشحونة بالعواطف والدموع، ألا الأب الذي كان يتصبّر حتى يسافر ولده وفي ذاكرته عيون تتمنى له سلامة الوصول والنجاح، وعندما حطت الطائرة في مطار (مدريد) كان (محمود) صديقه بانتظاره ملوحاً له بيده مناديا: صبيح .. صبيح. أنا هنا أدخل من هذا المكان، ولما أكمل الإجراءات عانقه وأخذه معه إلى محل سكناه.

كاد (صبيح) أن يُخْرج جسده من السيارة وهو ينظر إلى المباني العالية والجميلات اللاتي يتمايلن في الشارع مع اصدقائهنَّ وكلابهنَّ وهو يحدث نفسه:

- نعم يا صبيح ها أنت الآن في (مدريد)، أنه الحلم قد تحقق، لا لم يتحقق أنها الخطوة الأولى.

وحينما وصلت السيارة إلى الزقاق الذي يسكن فيه (محمود) نزل وهو يدق الأرض بقدمية منادياً:

-نعم، نعم أنها (مدريد) أنا هنا يا (مدريد). (والفرحة تكاد تطير به عالياً).

فضحك صديقة قائلاً:

- هيا بنا نصعد، سوف تشبع من الأرض والجدران والناس، هيا لأريك المكان.

دخل (صبيح) إلى مسكن صديقة فرِحَاً آملاً أن يحقق أحلامه التي طالما أسهرته حتى الصباح.

من بعد أن أخذ قسطاً من الراحة جلس مع صديقة ليفهم الحياة الجديدة التي أَقحم نفسه فيها، فكان يُقنع نفسه بكل ما يُقال له، ويهوَّنَ الأمر عليها، فاليوم هو في محل القبول والاستسلام وليس الرفض والاعتراض، وحينما نزلا إلى الشارع يتجولان أدهشته الحياة الظاهرة أمامه وراح يُمنّي النفس أن يتكلم مثلهم ويعيش بينهم، يصادقهم، يحدثهم، وربما يتزوج منهم.

لقد عرف من صديقه كيفية التقديم لمعهد (متروبلي) لدراسة السينما ولكنه تفاجأ من الأجور العالية، فقد كان يحمل مبلغاً بالكاد حصل عليه من عملة في العراق وما جادت به يد أبيه.

وعندما حدث صديقه بالأمر اقترح علية أن يأخذ دروساً في اللغة ويتعلم من لغة الشارع ريثما يتمكن من إيجاد عمل يمكنه من تحقيق طموحه الذي تغرب لأجله. أخبره صديقه أنه سينتقل إلى مسكن آخر مع زوجته الاسبانية وأنه سوف يترك المكان له ليسكن فيه. كل هذه العوائق لم تثن عزيمته على مواصلة الحياة هناك فالطموح يتطلب التضحية.

بعد يومين من وصوله بدأ صديقة محمود يلملم أغراضه الشخصية لينتقل إلى سكنه الجديد فقال صبيح:

- هل ستتركني وحيداً يا محمود وأنا ما زلت غريباً هنا، أي كلام هذا؟

محمود: كلا يا (صبيح)، أنا معك وسوف أساعدك على مواصلة حياتك هنا بحسب استطاعتي ويجب عليك أن تجُهد نفسك لتتعلم اللغة التي ستمكنك من إيجاد عمل، هيا تعال معي لتساعدني ولتعرف أين أسكن، وتتعرف على زوجتي.

صبيح: وكيف أستطيع التفاهم معها؟

محمود: ضاحكاً، اي تفاهم يا (صبيح)؟ هو مجرد تعارف وينتهي الأمر، هل نسيت أني اتكلم الإسبانية؟

صبيح: آه نعم، اعذرني فأنا مرتبك ومشوش الذهن.

محمود: نعم، كلنا حصل معنا الشيء نفسه، لا تقلق يا عزيزي، قريباً ستكون مثل أي واحد هنا، ستعرف الأماكن وبعد ستة أشهر تقريبا ستتمكن من التفاهم بعض الشيء مع الناس، وإن بذلت جهدك ربما تتمكن من معرفة اللغة بوقت أقصر، وقد تنشغل بنفسك وتنسى صديقك (مازحاً).

صبيح: لا تقل هذا، كيف لي أن أنساك وقد وقفت معي هذا الموقف؟

محمود: هيا يا صديقي لا تحول الموقف إلى دراما، فأنا أعرفك جيداً وأنت مفتون بالأدوار المأساوية، أضحك يا صديقي أضحك فالحياة تستحق الفرح.

أخذتهم سيارة الأجرة إلى البيت الجديد و (صبيح) لا يكاد يصدق نفسه هل هو في حلم ام هذه هي الحقيقة.

وصلا إلى البيت واستقبلتهم المرأة الإسبانية، ثم عرَّفها على (صبيح) وبدأ ينقل حاجياته إلى المنزل بعدها نزلوا إلى المطعم القريب يحتفلون بمسكنهم الجديد وبقدوم (صبيح) إلى إسبانيا، ثم اخذه (محمود) إلى البيت القديم مرشدا إياه كيف يصل إليه، وقبل أن يصعدوا أخذ صبيح في جولة تعارف يدور به على المحلات والأماكن القريبة، حتى لا يستغربوا منه ويساعدوه، ثم بين له المراكز المشهورة القريبة من حي (لابابيس). ثم ودعة حتى يوم غد ليأخذه إلى مدرسة اللغات ليسجل نفسه فيها ويتمم اجراءات الإقامة تمهيداً للبحث عن العمل.

بقي (صبيح) ليلته تلك متأملا الناس والمباني والسيارات من شرفته متنسماً عبير الأمل الذي بدأت بوادره تتحقق مع نسمات نهر (تاخو).

في اليوم التالي ناداه صديقة محمود من الشارع طالباً منه النزول ليذهب إلى مدرسة اللغات وينجز ما اتفقا عليه، وحينما عادا كان (صبيح) مطرقاً يفكر كيف سيتمكن من تأمين معيشته فقال له محمود:

- أراك مشغول البال يا صديقي، لعلك اشتقت إلى أهلك؟ أم ماذا؟

صبيح: أظن أن الوقت مبكر لذلك، لكني أفكر كيف سأجد العمل؟

محمود: صبيح من حقك أن تقلق، لقد فكرت في مدير المطبعة التي أعمل فيها لعله يقبل أن تعمل هناك.

صبيح: واللغة كيف سأعرفها؟

محمود: عزيزي هل ستعمل محرراً أو كاتباً؟

صبيح: (ضاحكاً بصمت وهو ينظر إلى صديقه باستفهام)

محمود: ربما تتوفر لك الفرصة في أعمال التنظيف.

صبيح: تنظيف؟ ماذا أنظف؟

محمود: نعم، تنظيف. تنظف كل شيء يخطر على بالك وتكرهه، هل فهمت؟

صبيح: (واجما، لا يجيب).

محمود: اسمع، أنت هنا غريب ولا أحد يعرفك، وأهلك لا يعرفون ماذا ستعمل.

صبيح: نعم

محمود: هنا يعمل الشباب بأي شيء يكسبون منه المال ولا يستنكفون من العمل، فلا تحمل هما، الأعمال محترمة هنا بحسب وضعك الاجتماعي.

صبيح: هل يوجد عمل آخر؟

محمود: نعم رئيس للوزراء.

صبيح: ضاحكاً نعم موافق إذا كانت الأجور تكفي.

محمود: تعال نأكل شيئاً قبل أن أذهب لعملي.

بعد أن أكملا طعامهما أرشده محمود إلى طريق المسكن على أن يوافيه غداً.

في الليل دق محمود الباب وحينما فتح (صبيح) احتضنه وقال له:

-مبارك يا صبيح، لقد وافق مدير المكتب على تشغيلك.

صبيح: ها، الحمد لله، وماذا أعمل؟

محمود: ستكون هناك قبل وصول الموظفين لتنظف المكان جيداً ثم تذهب حيث تشاء.

صبيح: نعم

محمود: نم الآن، وغداً انتظرني على ناصية الشارع لأريك كيف تصل إلى عملك، وكيف تقوم به.

وصلا إلى مقر العمل وأدخلهما الحارس وبدأ (صبيح) يزاول عملة الجديد بعد أن أرشده محمود إلى أدوات التنظيف ومكب النفايات.

***

فرح صبيح بعملة الجديد فرحاً كبيراً، واعتاد أن يذهب إليه في الصباح الباكر ثم يعود إلى منزلة ليكمل مشواره التعليمي في مدرسة اللغات. وحين جاء موعد الراتب كان متلهفاً لذلك، لكنه عندما حسب مصروفاته وجد أنه بالكاد يكفيه لقوت يومه وإيجار السكن، فتدارس الأمر مع (محمود) عصر أحد الأيام وهم يشربون القهوة في أحد المقاهي القريبة من السكن فقال له صديقة:

يجب عليك أن تعمل أكثر يا صديقي، حتى تتمكن من المعيشة وتدبر أمورك لحين تعلمك اللغة وربما تحصل على وظيفة أفضل.

صبيح: نعم، أفعل ولكن كيف؟

محمود: ماذا كنت تعمل في العراق؟

صبيح: كنت بائعاً متجولاً وحمّالاً.

محمود: أوه، طيب يا عزيزي اظن أن فكرة البائع المتجول مناسبة، سنحاول الحصول على عمل مناسب لك، تتجول ولا تحتاج إلى معرفة كبيرة إلى اللغة الإسبانية.

صبيح: ماذا أعمل؟

محمود: أعرف وكيلاً للصحف قريب من بيتك سنذهب إليه عسى أن يقبل.

صبيح: بائع للصحف تقصد؟

محمود: بائع جرائد، هنا بعض الناس يحبون قراءة الجريدة في الصباح، ستأخذ رزمة وتوصلها إلى المنازل، تستطيع أن تصل اليها على الدراجة الهوائية، هل تعرف قيادتها؟

صبيح: (ضاحكاً) نعم أعرف.

محمود: حسناً يا صديقي، أذهب الآن إلى بيتك وأدفع الإيجار ثم راجع دروسك وغداً سنرى ما تصير إليه الأمور.

بات صبيح مفكراً بحالة، هل سيتمكن من تدبير معيشته ودراسته؟ أم أن الأمور ستسوء أكثر ويضطر إلى العودة إلى الحلة ليبيع النفط؟ هذه الفكرة أتعبته كثيراً، كيف سيعود فاشلاً؟ ماذا سيقول لأمه وأبيه وأخوته الذين اجتهدوا وبذلوا الكثير ليصل إلى إسبانيا ويأتيهم بشهادة عليا؟ كيف سيتمكن من العيش بفكرة الفشل؟ نام (صبيح) على هذه الأفكار وهي تتقافز إلى ذهنه ولم يصح منها إلى على صوت المنبه فنهض مسرعاً إلى عمله الصباحي.

عندما أكمل العمل جلس قرب الباب منتظراً صديقه، ولما جاء أوصاه أن يأخذ جولة في الأرجاء القريبة ليتعرف على الشوارع على أن يلتقيا بعد الظهر في المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه.

وعندما حضر (محمود) توجها إلى وكيل الصحف الذي كان من أصول جزائرية، فقال له محمود من بعد أن حياه:

- هذا (صبيح) صديقي العراقي، وهو شاب أمين وطموح ومخلص في عمله، وهو يعمل معي في المطبعة، إلا أن راتبه لا يكفي للمعيشة والدراسة.

الوكيل: نعم مرحبا به.

محمود: هل يوجد لديكم عمل له؟

الوكيل: (متوجها إلى صبيح) تكلم يا بني، لماذا أنت ساكت؟ ألا ترى أني أتحدث العربية؟ أم أن الغربة أنستك لغتك(ضاحكا).

صبيح: احترامي لك يا عم، إنما تركت الحديث لصديقي محمود.

الوكيل: بصراحة لا يوجد لدي مجال لأعين موظفا آخر، ولكني أحب أن أساعدك في الوقت الحاضر، هل تستطيع أن تعمل معي في تجهيز وتحميل الرزم وترتيب المخزن؟

صبيح: نعم يا عم أقدر.

الوكيل: حسنا، تعال غدا في الساعة الخامسة صباحا.

صبيح: ولكن لدي عمل في ذلك الوقت في المطبعة.

الوكيل: الصحف والجرائد تأتيني في وقت مبكر من صباح كل يوم، وأنا احتاجك في ذلك الوقت.

محمود: لا بأس، يمكن أن تأتي إلى المطبعة في وقت مبكر لتنهي أعمال التنظيف ثم تأتي إلى هنا.

صبيح: نعم.

الوكيل: بني لا بد من الجد والتعب حتى تصل إلى مرادك.

صبيح: نعم يا عم الله المستعان.

محمود: نشكرك كثيرا يا عمنا المحترم، غدا سيوافيك صبيح في الموعد بإذنه تعالى.

الوكيل: على بركة الله.

محمود: مع السلامة.

خرجا من عند الوكيل وصبيح مثقل بالهموم والارباك، يا ترى هل سيتمكن من التوفيق ما بين الوظيفتين؟ فقال لصديقه محمود:

يا ترى هل سأقدر على ذلك؟

محمود: وهل لديك خيار آخر؟

صبيح: لا.

محمود: إذن حاول، وسوف نرى النتائج.

***

بذل صبيح ما بوسعه ليتمكن من العمل، فأهدافه التي جاء من أجلها تتطلب ذلك، فاعتاد أن يبدأ يومه من آخر الليل حتى الساعة العاشرة صباحا ليذهب إلى مدرسة اللغات.

وعندما وجد الوكيل أن صبيح صارت له معرفة بسيطة باللغة عزم على تكليفه بعمل آخر فقال له:

-صبيح بني أنت الآن تستطيع التفاهم مع الآخرين وتفهم منهم بعض الشيء، لذا أريد منك أن تعمل في توصيل الجرائد إلى البيوت صباحا، ما قولك؟

صبيح: كما تحب يا عم؟

الوكيل: راتبك سوف يتضاعف لتتمكن من تأمين معيشتك ودراستك.

صبيح: في أي وقت سيبدأ عملي الجديد؟

الوكيل: في نفس الموعد، بعد أن نجهز الجرائد والصحف ونرزمها تذهب مع العامل لتتعرف على الزبائن ثم تأخذ الأمر على عاتقك كل يوم.

صبيح حاضر يا عم.

انشغل (صبيح) كثيراً أو هكذا كان يظن، أن العمل والدراسة قد أخذا منه كل مأخذ، لكن صديقة (محمود) هون عليه الأمر وحسب معه ساعات العمل والدراسة فوجد أن كل ذلك لا يتعدى منتصف النهار، فعرف أنه كان يعاني من ضغوط لم يعتد عليها، ولا سيما أنه عرف أن أغلب الشباب هنا يقضون يومهم بالعمل، وراحتهم تكون أيام العطل الأسبوعية فقط.

***

أكمل صبيح الستة أشهر الأولى من غربته وصار لديه رصيد وفهم لغوي مكنه من صياغة الجمل والتحدث مستعينا بما في مخزن الصحف من جرائد ومجلات وكتب تشبع رغبته للتعرف على أخبار الفن والفنانين، ومما سهل الأمر عليه حصوله على الصحف والمجلات التي تصدر باللغة العربية،

في أحد الأيام عندما كان يسلم الصحف إلى الزبائن سألته (كرستينا) المرأة الأربعينية التي كانت تدير صالون حلاقه في آخر الشارع الذي يسكن فيه قائلة:

- من فضلك هل تستطيع أن تحصل لي على مجلة(أولا)؟

صبيح: (فرحاً) نعم سيدتي، فقط أكتبي اسم المجلة في ورقة لأعطيها للوكيل.

كرستينا: حسناً، لك ما تريد.

أخذ (صبيح) عنوان المجلة وهو يشعر أن أموره بدأت تتحسن مع المجتمع الذي يحيا وسطه. ركن دراجته قرب مخزن الصحف وأعطى الورقة إلى الوكيل، فهز رأسه ودخل ليعود بعد قليل وهو يحمل ثلاث مجلات قائلاً:

- هذه آخر الأعداد المتوفرة عندي، لتأخذ منها ما تريد ولا تنسى أن تأخذ ثمنها.

صبيح: نعم سيدي.

عاد (صبيح) راكباً دراجته وهو يشعر بالفرح ووقف أمام دكان (كرستينا) يقرع جرس الدراجة، ولما لم يأته أحد ركنها قرب الباب ودخل، وإذا به يتفاجأ من المنظر الذي رآه

للمرة الأولى، فكل امرأة مشغولة بعمل ما، قص الشعر وغسله وتقليم الأظافر ومكياج للوجه، فجاءته (كرستينا) مسرعة لتصحبه إلى الخارج قبل أن تنتبه إلية النساء.

وعندما أخبرها بما قاله الوكيل قالت:

- شكراً جزيلاً سآخذ الاعداد الثلاثة وهذا ثمنها، لم أكن اتوقع أن تأتيني بها بهذه السرعة يا عزيزي، مع السلامة.

أخذ (صبيح) الثمن عائدا إلى الوكيل فدفعه إليه وعاد مسرعاً إلى مدرسة اللغات.

***

امتلأت جدران غرفة (صبيح) بصور الممثلين الذين يحب ادوارهم وباتت هنا وهناك كتب المسرح و السينما التي تكرم بها عليه وكيل الصحف فشرع يقرأ ويحاول أن يحفظ بعض الحوارات ليرددها مع نفسه ليتمكن من اتقان اللغة الاسبانية التي كان يأخذ قواعدها في مدرسة اللغات، ولأنه يسعى لدراسة الفنون المسرحية كان لزاما عليه أن يفهم اللغة وعندما كان يواجه كلمات وحوارات يصعب فهمها عليه كان يستعين بصديقه محمود ووكيل الصحف وكرستينا. استمر على هذا الحال شهورا حتى قرر أن يختار مسرحية من الأدب الاسباني لغتها غير معقدة يستعين بحواراتها ومفرداتها على فهم اللغة والتحدث بها بطلاقة.

فاختار دور (العريس) في مسرحية (عرس الدم) للكاتب الاسباني (فيديريكو غارثيا لوركا). فذهب إلى صديقه محمود ليساعده في مشاهدة المسرحية عبر جهاز الفيديو تيب الذي يملكه، فلم يمانع من ذلك فاقتنى له شريط الفيديو واختار له الوقت الذي يحضر فيه إلى منزله لمشاهدة المسرحية. لقد كان متابعاً أيضا لما يعرض في تلفزيون المقهى الذي يرتاده دائما ، حتى أن صاحب المقهى و عماله عرفوا بحبه للسينما والمسرح ، ولأن روحه طيبة ويبادر إلى المساعدة عندما يقوم العمال بالتنظيف ، فقد سمحوا له أن يجلس وقتما يشاء ويقدمون له القهوة مجانا، فقد كانوا يراقبون حركاته عندما يحاول أن يقلد (روبرت دينيرو) أثناء مشاهدته لأحد أفلامه ، فيبتسمون له و يمازحونه ، وحينما ينتهي من حديث نفسه كانوا يفاجئونه

بالتصفيق و التصفير و الهتاف ، فيجفل من الصوت للوهلة الأولى ، لكنه ما يلبث أن يستعيد ذهنه فيشاركهم الضحك أو الانحناء لتحيتهم وكأنه ممثل مشهور على المسرح.

***

مرت الشهور والأيام على غربة صبيح وهو منكب فيه على العمل وتحصيل المعاش ودراسة اللغة وتعلمها بأقصى جهد ممكن، فاللغة بالنسبة إلى هدفه الذي جاء من أجله مهمة جدا، فالمسرح والسينما عمادها وركيزتها الأساسية هي اللغة، فكانت ثمار ذلك الجهد المضنى أن صبيح تمكن من القراءة والكتابة والتحدث بلغة جيدة مفهومة، إلا اللُكنَة التي لم يتمكن من التغلب عليها فكان يُعرف من لُكنته أنه ليس اسبانيا.

لقد تفرغ تماماً ليكون بذلك المستوى فلم يصاحب فتاة ولم يرفه عن نفسه بسفرة ولو لمكان قريب كان حريصا جدا على تحصيل أكبر قدر ممكن من المفردات والجمل والمفاهيم الاسبانية وقد حقق ذلك، كذلك ثقافته الفينة زادت فيما يتعلق بالمسرح والسينما كالموسيقى والديكور والأعمال الفنية فقد تطورت معرفته بالمجتمع وصارت عنده ركائز أساسية.

لقد كان معجبا أشد الإعجاب بموسيقى الفالس حينما يسمعها من التلفاز في المقهى أو من المذياع عند وكيل الصحف.

في أحد الأيام أحس الوكيل بإنصات صبيح للموسيقى فاقترب منه قائلا:

-هل تحب هذا النوع من الموسيقى؟

صبيح: نعم يا عم، ولا أدري لماذا، أحس أنها تنقلني إلى عالم آخر.

الوكيل: (مبتسما) من المؤكد أنك طوال النهار تستمع اليها.

صبيح: لا يا عم، أسمعها حينما يصادف وجودي في المقهى وتظهر على التلفاز، أو حينما آتي إلى هنا أسمعها من المذياع.

الوكيل (متعجبا) تعني أنك لا تملك التلفاز أو جهاز التسجيل او الكرام فون؟ أم إنه لا يوجد لديك الوقت لسماعها؟

صبيح: نعم يا عم لا يوجد لدي أي جهاز، فما أحصل عليه من أجور بالكاد يكفيني للمعيشة والسكن والدراسة.

الوكيل: (وقد جحظت عيناه متعجبا) قائلا: اذا وجدت جهازاً بسعر مناسب هل تشتريه؟ أم اشتريه لك واستقطعه من أجرك بالتقسيط، ما قولك؟

صبيح: لا أدري يا عم، يا ترى كم سيكون سعره؟

الوكيل: يوم العطلة الأسبوعية سنذهب أنا وأنت إلى سوق الخردة لنعرف الأسعار وحينها نقرر.

في يوم العطلة كان صبيح مترددا، هل يذهب أ يعدل عن رغبته؟ وما بين الحيرة والرغبة رأى أن يذهب ليستطلع المكان وهناك يقرر ما يفعله.

فذهب إلى مخزن الوكيل فوجده بانتظاره فأخذه بسيارته قاصدين السوق. وهناك تعجب صبيح مما رآه فقد كانت البضائع متنوعة، افترش أصحابها الأرض معلنين عنها بأثمان رخيصة، فاصطحبه الوكيل إلى المكان الذي تباع فيه الأجهزة الصوتية فاختار (كرام فون) واسطوانات قديمة وظل متأملا جهاز (الفيديوكاسيت) المعروض أمامه فقال له الوكيل:

-ها يا صبيح هل ترغب بهذا أيضا؟ ثم التفت إلى البائع يسأله عن السعر وعاد إلى صبيح قائلا: نعم خذه فثمنه رخيص ولا تحمل هما أنا سأدفع، وهو هدية مني إليك، أنت تدفع ثمن (الكرام فون) فقط بالتقسيط.

صبيح: (وقد ظهر عليه الخجل) أشكرك يا عم، ما تقدمه لي كثير.

الوكيل: أنت شاب مكافح ومثابر وتستحق كل ما يُقدم لك، هيا احمل الجهازين ولنذهب إلى بائع أشرطة الفيديو لتختار ما يناسبك.

بعد أن حصل صبيح على ما يريد ذهب إلى البيت وراح يشنف أسماعه بالموسيقى التي يحبها آملا أن يجد الوقت الكافي لمشاهدة مسرحية لوركا ويحفظ منها حوار الشخصية التي اختارها ويتعلم من الممثلين الأداء والألقاء.

شعر صبيح أن الأقدار بدأت تقدم له نتائج تعبه واصراره على تحقيق أهدافه، فها هو يحظى برب عمل طيب القلب وأصدقاء يحبونه ويمازحونه وجيران طيبين يحبون الفن ويحترمون مشاعره.

في صباح يوم عمل حينما ذهب لتوزيع الصحف ووصل إلى منزل الزوجين (ماريا) و (خوسيه) طرق الباب على عادته فخرجت إليه الممرضة ، وعندما فتحت الباب سمع صوت موسيقى (الفالس) تصدح في أرجاء المنزل ، فأغمض عينيه وهو يسلمها رزمة الصحف الصباحية تاركا خياله يحرك أوصاله ، فقد كان يعشق تلك المعزوفة التي تثير فيه أحلامه الوردية ، فراح يتراقص مع الأنغام ، وإذا به في قاعة كبيرة من القرن التاسع عشر وهو يراقص إحدى البرينسيسات ، و الراقصون من حولة ينظرون إليه بإعجاب ، فأخذ يدور وهي تجاريه بفرح غامر ، فقد تشبث بذراعي الممرضة وراح يراقصها أمام الدار ويدور على نفسة ، ولم ينتبه إلا وهو على الأرض من بعد أن ارتطم بشجرة أمام البيت ، فأجهش بالبكاء ، فتعجبت الممرضة من بكائه وركضت إلى الزوجين تخبرهما بالذي حصل ، فتحاملت (ماريا) على نفسها وخرجت تتكيء على عكازتها لتنظر ما الذي يجري ، فاقتربت منه قائله: عزيزي ، هل تأذيت؟ هل يؤلمك شيء؟

أنتبه (صبيح) من غفلته ومسح دموعه وما علق برأسه من أوراق وأعشاب ونهض مسرعاً قائلاً:

- كلا سيدتي لم يحصل لي شيء، أنا بخير، (وهو يهم بركوب الدراجة).

ماريا: هل تحتاج إلى المساعدة؟ هل أقدم لك كوباً من الشاي أو القهوة؟

صبيح: شكراً سيدتي، وهو يمسح دموعه التي تتقاطر على وجنتيه وشعيرات لحيته التي بدأت لتوها متفرقة.

ماريا: أوه يا عزيزي لقد احزنتني يا ولدي هيا، تعال معي.

انقاد (صبيح) إلى المرأة لعله يرتاح قليلاً وتهدأ مشاعر الحزن في نفسه.

أدخلته بيتها وقدمته إلى زوجها الذي كان يجلس على كرسيه يتصفح الجريدة قائلاً:

- أهلا، وما الذي يريد؟

ماريا: لقد ارتطم بالشجرة وسقط على الأرض ويبدو أنه يتأذى من شيء.

خوسيه: (وهو ينظر إلى الصحيفة) وهل الشجرة هي التي وقفت في طريقة؟

ماريا: متوجهة بكلامها إلى (صبيح) تعال أجلس هنا (أجلسته على أريكة ليس بعيد عن زوجها (خوسيه)) وطلبت من الممرضة أن تُحضر له كوباً من الشاي وقطعة بسكويت.

ماريا: نعم، قل لي ما يبكيك؟ هل أنت مريض؟ جائع؟ من أين أنت؟ (لقد رأت (ماريا) في (صبيح) صباها حينما كانت تعتني بأولادها الذين فارقوها في خضم الحياة ومشاغلها، ورأت فيه شيئاً جديداً يكسر الروتين الذي اعتادت عليه كل يوم، ودفئا يشعُّ في أرجاء البيت الذي أصابه البرد من بعد أن ذهبت أنفاس ساكنيه الدافئة).

صبيح: (وهو يحاول أن يستجمع الكلمات التي يتعلمها ويعبر عما في نفسه) قائلاً:

سيدتي، لستُ مريضاً ولا جائعاً، لكني تركت الخيال يعبث بي فرحتُ بعيدا، وحينما ارتطمتُ بالشجرة صحوت على حالي المُتعَب، ولذلك غلبتني مشاعري ودموعي.

ماريا: من أين أنت وما الذي تفعله هنا؟

صبيح: أنا من العراق، جئت إلى مدريد لإكمال دراستي.

ماريا: ماذا تدرس؟

صبيح: الان أنا في مدرسة اللغات، حتى أتمكن من الالتحاق بمعهد (متروبلي) للسينما.

ماريا: أنت فنان إذن؟

صبيح: (مبتسماً) أتمنى ذلك سيدتي.

ماريا: يبدو لي من هيأتك أنك فنان فعلاً.

صبيح: (مبتسماً ومعتدلاً في جلسته) صحيح؟ هل ترين ذلك؟

ماريا: نعم، نعم يا ولدي هذا واضح عليك، ولكن قل لي ما الذي يبكيك؟

صبيح: يا سيدتي، أنا جئت لأدرس الفن كما أخبرتك، ولكن وجدت أن الحياة هنا صعبة ومكلفة، فالأجور عالية في كل مكان، وكل شيء هنا لا يأتي الا بالمال.

ماريا: نعم يا ولدي، هذه هي الحياة هنا وفي غير مكان أيضاً، قل لي هل تكسب جيداً من عملك؟

صبيح: نعم، لدي عمل آخر، أذهب للمطبعة للتنظيف ثم آتي لتوزيع الصحف بعدها أذهب للمدرسة.

ماريا: أحسنت، ما دمت مصراً على الجدِّ والمثابرة سوف تصل إلى مرادك وتحقق أهدافك.

صبيح: نعم، شكراً سيدتي على الضيافة، أنا آسف لأني أزعجكم.

ماريا: انتظرني قليلاً.

انتظر (صبيح) وهو يجول بناظريه في أرجاء المكان وقد لاحظ صور العائلة على الجدران، و (خوسيه) جالس على كرسيه بكل برود وخلفه صورة كبيرة لرجل برتبة عسكرية ونياشين، يبدو أنه هو.

عادت (ماريا) وهي تحمل بعض النقود لتدسها في يد (صبيح) مما أشعره بالخجل والارتباك، وهو يرفض المبلغ بكل إصرار قائلاً:

-لا يا سيدتي شكراً جزيلاً، أنا أعمل وأكسب المال، ولن أقبل بأي شيء دون ذلك.

ماريا: خذه يا بني واستعن به على قضاء بعض حوائجك، أنت طالب وتحتاج إلى مصاريف كثيرة.

صبيح: شكراً سيدتي، لا أستطيع اعذريني.

ماريا: كما تحب، يبدو أنك رجل عصامي وأنا أحب هكذا رجال، إذا احتجت إلى شيء مستقبلاً فتفضل عندي.

انتبه (خوسيه) إلى كلام (صبيح) مع زوجته ورفضه للمال، فرفع عينية من خلف نظارته وهو ما زال ممسكاً بالجريدة وقال له:

- أين تدرس الآن؟

صبيح: في مدرسة اللغات.

خوسيه: وما أسمك وأين تسكن؟

صبيح: أسمي (صبيح) وأسكن في شارع (لاابابيس).

خوسيه: خذ هذه الورقة واكتب أسمك وعنوان مسكنك والمدرسة التي تدرس فيها، وضعها وهنا أمامي على المنضدة واذهب مع السلامة.

لم يستطع صبيح أن يرفض الأمر، فقد بدت على (خوسيه) القوة والصلابة والصرامة، فكتب ما يريده وخلاها حيث أراد وخرج مودعاً.

خرج (صبيح) من الدار وركب دراجته ليكمل عملة وما جرى له لا يُكاد يفارق مخيلته وهو يستعيد الحوار والأحداث مراراً وتكراراً متسائلاً ما الذي يريده (خوسيه)؟

أعجب (خوسيه) بموقف (صبيح) وأحس نحوه بالرأفة الأبوية لكن طبيعته الصلبة التي تربى عليها طيلة حياته العسكرية جعلته يُخفي مشاعره ولا يظهرها لأحد، فذهب في اليوم التالي هو وزوجته (ماريا) إلى معهد اللغات وتكفّل بأجور الدراسة للمرحلة التي يدرسها (صبيح) وطلب من المحاسب أن يبلغه ذلك ولكن من دون أن يذكر اسمه.

وحينما وصل (صبيح) إلى المعهد استدعاه المحاسب وأبلغه بالأمر، فشكره وطلب منه أن يخبره بالمتبرع، فرفض وأصرّ على كتمان ذلك.

فرح (صبيح) كثيراً وحمد الله على هذه المساعدة التي ستعوضه الكثير من الوقت والجهد وهكذا استمر على هذا المنوال واعطى للتمثيل وقراءة أخبار الفن والفنانين وقتاً أكثر.

توالت على صبيح الايام وهو ما بين العمل و الدراسة، ولما عزم على الالتحاق بمعهد (متروبلي) لدراسة السينما عرف أنه لا يزال يحتاج إلى مزيد من الجهد ليوفر أجور الدراسة فقرر أن يأخذ من الليل شطراً يعمل فيه ، فقد شاهد بعض الباعة يفترشون الأرض ببضاعة سهلة الحمل في ساحة (بلاثا مايور) ، فأشترى بعض الإكسسوارات و الدمى الصغيرة و الأساور و الميداليات التي تُظهر معالم مدريد السياحية وقصد الساحة ليبيع. استمر على هذا الحال أياماً معدودة انتعش فيها جيبه شيئاً قليلاً ففكر أن يبدأ التوفير وينوّع البضاعة ليكسب أكثر.

في إحدى الليالي افترش الساحة ببضاعته، وقد باع منها الشيء الكثير للسياح والشباب، ولما جلس يحسب المتبقي منها رأى الباعة يلملمون حاجياتهم ويختفون بين الناس، فتساءل مع نفسه عن السبب (ربما يكون المطر؟) ثم عاد مطرقا إلى بضاعته، وفي أثناء ذلك وقع نظره على زوجين من الأحذية لامعتين تقفان بمحاذاة فرشته فرفع رأسه، وإذا بضابط الشرطة يسأله:

-ماذا تفعل؟

فأخذ (صبيح) يعرض علية بعض الإكسسوارات والقلائد، ولما أحس أن الضابط لا يستجيب له نهض من مكانه واقفاً لا يدري ماذا يفعل.

الضابط: لماذا أنت هنا؟ ألم تعلم أن البيع هنا ممنوع؟ هيا معي إلى المركز.

اندهش (صبيح) من كلام الشرطي فهذه هي المرة الأولى التي يواجه هذا الموقف، فأخذه الخوف فبادر يتوسل إلى الضابط أن يسامحه ثم أخرج إليه بطاقة الدراسة في مدرسة اللغات، فتأفف الضابط وراح ينظر إليه يتفحصه بنظراته على وجهه وملامحه ثم قال له:

-حسناً، هذه المرة الأولى لك، في المرة الثانية سآخذك إلى المركز لأنك خالفت القانون، الآن اجمع بضاعتك واذهب قبل أن أغير رأيي.

لملم (صبيح) المفرش مسرعاً ليخرج من الساحة وعندما ابتعد خطوات عن الضابط ناداه مرة أخرى:

-تعال.

فعاد صبيح وقلبه يكاد يخرج من فمه من شدة الخفقان قائلا:

-نعم سيدي تفضل.

الضابط: إذا أردت أنت تبيع فأذهب إلى شارع (ربيراتي كورثيدورس) فالبيع هناك مسموح هل فهمت؟

صبيح: نعم سيدي فهمت (ثم خرج من الساحة مسرعاً متوجها إلى بيته وهو يحمد الله على السلامة).

في صبيحة يوم الاحد كان (صبيح) لا يعمل بل يفرغ نفسه للتدريب على التمثيل كما يحُب أن يُقنع نفسه، فينزل إلى الشارع مبكراً يتريض وهو يردد حواراً يحفظه ما دام راكضاً، أو مهرولاً، وحينما آن له أن يستريح وكان مشغولا بدور (العريس في مسرحية عرس الدم)، توقف أمام المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه ولم يكن قد فتح ابوابه بعد. فأخذ يردد الحوار بصوت مسموع تاركاً لخيالة العنان، فكان يتحرك كما يتطلبه الدور المسرحي حتى علا صوته الجهوري في الزقاق، فأفاق بعض الجيران الذين أخذوا يُطلُّون عليه من نوافذهم يرشقونه بتعليقاتهم الساخرة المرحة وهو في نشوة الفرح تلبسّ بالدور أكثر، وهو يتقافز على حافة الرصيف متخيلاً أنه على خشبة المسرح فزلت قدمه وسقط فارتطم رأسه بالأرض فصاح جيرانه من على الشرفات المطلة عليه صيحات التأسف ونادوه للاطمئنان على حاله، إلا العجوز (خوان) الذي كان متشفّيا به لأنه أوقظه من نومه في يوم عطلته.

أما جارته العجوز (كارمن) فقد استجمعت قواها لتنزل السلم بعكازيها لتساعده حينما رأت بعض الجيران يسرعون إليه، لكن السلالم الملتوية أعاقت نزولها سريعاً، وحينما وصلت إليه كانت سيارة الإسعاف قد انطلقت به إلى المشفى، فتأسفت كثيراً وهي تنظر إلى أوراقه المبعثرة على الأرض وقبعته الشتائية التي لوثها الدم، فجمعت الأوراق وأخذت القبعة لتنظفها ونادت خلفة بصوت مسموع:

- اعذرني يا عزيزي، في المرة القادمة سأكون أول الواصلين اليك.

بعد خروجه من المشفى جلس صبيح في المقهى على عادته وإذا مرَّ به أحد معارفه من الجيران يسألون عن حالته كان يكرر أثناء قيامه لتحيتهم: أنها سقطة النجاح، سأعود اليكم قريبا، أشكر إعجابكم أعزائي.

أثمرت جهود (صبيح) وإصراره على العمل والتعلم ، فقد كثرت مفرداته اللغوية وصار يُحسن التعبير عن نفسه ، بل صار يؤدي بعض الأدوار باللغة الإسبانية ، وكان يتحيّن الفرصة لمشاهده مسارح الهواة والعروض السينمائية الثقافية، ونمت في صدره الرغبة في تعلم حرفيات الفن قبل دخوله إلى معهد (متروبلي) وكان لا يخفي رغبته تلك عن اصدقائه الاسبانيين وزبائنه الذين عرفوا شغفه بالسينما والمسرح و متابعته للممثل العالمي (ريو دي نيرو) حتى أنهم صاروا ينادونه (ريو) من كثرة ما شاهدوه وهو يقلد حركاته و اداءة، وفي أحد الأيام حينما جلب الصحف إلى (كرستينا) نادته قائلة:

-(صبيح) أنتظر، تلك زبونة (وهي تشير إليها بيدها) تعمل فنانة مكياج، وهي تغادر الآن هل ترغب أن أعرفك عليها؟

صبيح: آه ..نعم بكل سرور.

كرستينا: أنسة (حسيبة) من فضلك؟

صبيح: حسيبة؟ هل هي عربية؟

كرستينا: نعم أنها من اصول تونسية أبوها اسباني وأمها تونسية.

حسيبة: نعم كرستينا.

كرستينا: هذا (صبيح) رجل لطيف يحب السينما والمسرح.

حسيبة: (صبيح)؟ أهلا وسهلاً.

صبيح: نعم سيدتي (صبيح) وبإمكانك مناداتي (ريو) فهو اسم للأصدقاء.

حسيبة: (مبتسمة) حسنا (ريو) هل تذهب إلى المسرح أو السينما؟

صبيح: نعم، أذهب لمشاهدة مسرحيات الهواة وبعض العروض السينمائية.

حسيبة: وما الذي يعجبك في المسرح؟

صبيح: أحب مسرحيات (لوركا) و (موليير) وأحب (ريو دي نيرو).

حسيبة: (ضاحكة) آها لذلك يسمونك (ريو)؟

صبيح: نعم سيدتي، هل تسمحين لي أن أقدم لك كوباً من القهوة أو الشاي؟

حسيبة: وقتي ضيق الآن، عندي عمل في المسرح، ربما في وقت آخر.

صبيح: حسناً، آسف (ولما بدا عليه الإحباط) بادرته قائلة:

-هل تود مشاهده العرض المسرحي؟ أستطيع دعوتك مجاناً.

صبيح: الآن؟

حسيبة: لا في الساعة الرابعة عصراً.

صبيح: طيب أكتبي لي العنوان وسوف آتي حينما أكمل عملي.

كتبت له العنوان في قصاصة ورق وودعته، فذهب (صبيح) ليكمل عمله وهو يأمل أن يكون هذا التعارف بداية للدخول في عالم لطالما حلم به.

قبل الموعد بساعة تأنق (صبيح) على قدر المستطاع وذهب إلى المسرح وحينما وصل وجد طابوراً من الناس ينتظرون دورهم أمام شباك التذاكر، فوقف متحيراً مع نفسه:

-لقد نسيت أن أسألها كيف سأتصل بها؟ ماذا افعل؟ سأذهب إلى الحارس وأطلب منه أن يوصلني إليها.

صبيح: مرحباً سيدي.

الحارس: مرحباً

صبيح: أنا صديق الآنسة (حسيبة) فنانة المكياج، ولدي موعد معها الآن هل تسمح لي بالدخول؟

الحارس: أنتظر قليلاً (ثم أجرى مكالمة تلفونية وعاد إلى (صبيح)) قائلا:

-أنتظر سوف تأتي.

ثم جاءه شخص قائلاً: هل أنت (صبيح)؟

صبيح: نعم

فقال له: تفضل السيدة حسيبة بانتظارك في غرفة المكياج.

دخل (صبيح) فأخذته (حسيبة) وأجلسته خلف الكواليس ريثما تنهي عملها.

كانت دهشة (صبيح) كبيرة حينما رأى حركة الممثلين والعاملين خلف الكواليس، ومع كل مجموعة تقع عينه عليها يتقد في نفسه الأمل والرغبة أن يكون بينهم، لذا لم يتوانَ أن يطلب من (حسيبة) مساعدته للعمل معهم قائلاً:

-سيدة حسيبة هل يمكنني العمل معكم؟ أنا أعتذر أن طلبت ذلك من دون مقدمات، لكنها رغبتي الكبيرة.

حسيبة: (وهي مبتسمة) يبدو أن الحال هنا قد أعجبك. صبيح: نعم كثيرا واتمنى العمل معهم.

حسيبة: اللغة مهمه هنا يا (ريو) فهل تستطيع التواصل معهم؟ يجب عليك أن تتعلم الألفاظ والمصطلحات التي يستخدمونها حتى تتمكن من أنجاز ما يطلبون.

صبيح: نعم، أتعلم.

حسيبة: لا يمكن أن تعمل ممثلا فلهجتك ما زالت غريبة، ولكن يمكن أن تعمل في الديكور والملابس وربما المكياج.

صبيح: لا مانع عندي.

حسيبة: هذا مسرح الهواة والأجور هنا ليست كما تتصور.

صبيح: أعمل من دون أجر، أريد أن أتعلم فقط.

حسيبة: حسناً، أجلس هناك في ذلك المقعد لتشاهد العرض بعدها سنرى ماذا نعمل.

صبيح: شكرا جزيلا سيدتي.

عاد (صبيح) إلى مسكنه فرحاً متفائلاً وهو يرى أن أحلامه أو حلمه قد الكبير يتحقق شيئا فشيئا:

نعم يا (صبيح) هذا هو الاتجاه الصحيح خطوة خطوة، كل العظماء الذين قرأت عنهم بدأوا هكذا سأنام اليوم ملء جفوني وأنا مرتاح.

كم أنا سعيد.. لي رغبة أن أتحدث مع أهلي ولكن في هذا الوقت المتأخر. لا .. أبي وأمي وأخوتي هم الآن نيام وغداً لديهم أعمال مجهدة.. كم أحُبكم يا أهلي، يا أمي .. يا أبي .. يا أختي .. يا إخوتي .. قريبا إن شاء الله سأساعدكم، سأحمل عنكم بعض التعب أيها الطيبون.

***

عمل (صبيح) بنصيحة (حسيبة) وبدأ يحفظ المصطلحات والتعبير المطلوب وكلما تعلم شيء أو يصعب عليه شيئا يتصل (بحسيبة) لتساعده وفي نفس الوقت ليعرض عليها مستوى تقدمه من دون أن يقول لها ذلك صراحة.

في صبيحة أحد الأيام حينما كان يسلّم الصحف للزبائن نادته (كرستينا):

-صبيح.. صبيح

صبيح: نعم سيدتي

كرستينا: ريو.. أين أنت.. لماذا لا تتصل بي؟

صبيح: آسف سيدة (كرستينا) العمل والدراسة يا سيدتي.

كرستينا: أها، لم تخبرني هل ساعدتك السيدة حسيبة؟

صبيح: أوه.. نعم سيدتي إنها فنانة طيبة لقد ساعدتني وعلمتني الكثير.

كرستينا: (مداعبة) نعم.. وهل هي جميلة؟

صبيح: ها.. لا أعلم ..اه .. نعم هي جميلة (قالها بخجل).

كرستينا: جميلة؟ هل تقصد إنها أجمل منّي؟

صبيح: (بخجل) سيدتي لا أعلم.

كرستينا: لا تقل لي سيدتي قل (كرستينا) أنت صبيح وأنا كرستينا وأُناديك (ريو) نحن اصدقاء يا (ريو) أصدقاء، وأنا أُحبك وأُحب أن أساعدك فأنت رجل نبيل.

صبيح: (وقد دارت الدنيا برأسه) سيدتي: عفواً (كرستينا) ماذا تقولين؟

كرستينا: (مقطبة حواجبها) ما بك (ريو) ألم تسمع إطراء من قبل؟

صبيح: لم أسمع إلا من أمي.

كرستينا: (ضاحكة متعجبة) ريو .. هل تقصد أنك لم تلتق بامرأة من قبل؟

صبيح: كلا.

كرستينا: حتى في بلدك؟

صبيح: حتى في بلدي.

كرستينا: هل أنت؟

صبيح: ماذا؟

كرستينا: هل أنت تكره النساء؟ اقصد هل أن مشاعرك اتجاه النساء باردة؟

صبيح: أوه .. (كرستينا) فهمت قصدك، كلا أنا رجل طبيعي لا تخافي.

كرستينا: حسبتك (ثم غمزت بعينيها).

صبيح: لا.. لست (وأعاد نفس غمزتها، فضحكا).

كرستينا: لماذا؟

صبيح: لماذا ماذا؟

كرستينا: أوه.. يا (ريو) لقد أصبحت تجيد الحوار هذا أمر مفرح.

صبيح: (مبتسما بفخر) يا سيدتي جئت إلى هنا بصعوبة بالغة جاهد أبي وأمي وإخوتي لأجل أن أحقق طموحي فكيف لي أن أخذلهم؟

كرستينا: وهل علاقاتك العاطفية خذلان لهم؟

صبيح: نعم، لابد لي من تحقيق هدفي وأنا لست مهتما بغير هذا الآن.

كرستينا: (حسيبة) تعالي واسمعي (ريو) كيف صار يتحدث ويجادل، هل تذكر عندما جئت إلى هنا لا تعرف إلا نعم وشكرا وسيدتي؟

صبيح: نعم سيدتي، وأنت ساعدتني على أن أتعلم أفضل.

حسيبة: (وهي خارجه من الصالون إلى عملها) أهلا (ريو) كلمتُ مدير المسرح عنك، تعال هذا الأسبوع لتراه، عن إذنكم لم يبقَ لدي وقت.

كرستينا: والآن ما قولك عن هذه المفاجأة ألا تستحق كوباً من القهوة وقطعة من البسكويت.

صبيح: نعم .. نعم لقد كانت مفاجأة عظيمة سيدة (كرستينا)، سأذهب الآن لأكمل عملي فقد تأخرت (ثم ركب دراجته متوجهاً إلى عمله).

كرستينا: (منادية) و القهوة هل نسيتها ..ريو ..؟

صبيح: (التفت اليها وهو على دراجته) سأكمل عملي وأعود إليك لم يبق إلا زبونان.

كرستينا: (مشيرة إليه بالموافقة ثم دخلت دكانها).

لم يصبر (صبيح) على موعد (حسيبة) طويلاً بل ذهب إلى المسرح بعد أنجاز عمله، فأدخلته (حسيبة) وذهبت به إلى مدير المسرح:

حسيبة: مرحبا سنيور هذا (صبيح) الذي كلمتك عنه.

مدير المسرح: اه.. نعم أهلا (صبيح).

صبيح: أهلا سنيور.

مدير المسرح: هل تريد أن تعمل معنا.

صبيح: أرجو ذلك.

مدير المسرح: وما الذي يمكنك أن تقدمه؟ هل أنت ممثل أم ماذا تريد أن تعمل؟

صبيح: أنا أحب التمثيل ولدي رغبه في الدراسة ولذلك جئت إلى مدريد.

مدير المسرح: حسنا، لم تخبرني ما الذي تريد؟

صبيح : أي عمل تراه مناسباً لي.

مدير المسرح: طيب، لغتك كما يبدو ولهجتك مثيره للانتباه، فأنت لا تستطيع أن تمثل في الوقت الحاضر إلا في شخصيات معينه.

صبيح: نعم.

مدير المسرح: أرى أنه من الافضل لك أن تطّلع على أعمال مختلفة حتى يأتي الوقت الذي تتمكن فيه من اعتلاء خشبه المسرح، ما قولك؟

صبيح: نعم موافق.

مدير المسرح: الآن سوف تعمل مساعداً في غرفه الملابس تساعد الممثلين وتنظم الملابس من بعد الانتهاء من العرض المسرحي، وقبل العروض ستعمل مساعداً لعمال الديكور، هل يرضيك هذا؟

صبيح: نعم.. نعم أستاذ، أقبل بذلك، ولكن متى يبدأ عملي فأنا مرتبط بعمل منذ الصباح حتى الساعة العاشرة، وعصراً أذهب إلى مدرسه اللغات.

مدير المسرح: لا بأس حينما تكمل عملك الصباحي تعال إلى هنا ومن بعد العصر أيضا تعال، عملنا ليس محدود الساعات أنما يحكمنا العرض المسرحي ومتطلباته.

صبيح: نعم حاضر.

مدير المسرح: الأجور لن تكون عالية لكنها ستؤمن لك بعض الاحتياجات، والآن أذهب وعد إلينا بعد العصر.

خرج (صبيح) من المسرح والفرح يملأ جوانحه، فها هو الحلم بدأت بوادره تتحقق فكان يعدُّ الساعات والدقائق ليعود إلى المسرح ويشبع رغبته التواقة إلى ذلك.

وحينما عاد في المساء إلى المسرح وجد الحركة الدؤوبة تضج بالمكان، فطلب منه مدير المسرح أن يذهب ويساعد عمال الديكور فكان أول عمل يقوم به هو صيانة بعض الأجزاء وتحريكها بحسب توجيهات مصمم الديكور، فوجد فيه زملاؤه ومدير المسرح الذي كان يراقبه بين آونة وأخرى التعاون والرغبة في التعلم.

***

هكذا توالت الأيام على (صبيح) وهو منشغل بالعمل والدراسة فلا يُكاد يجد متسعاً من الوقت ليحفظ دوراً ما أو يتدرب في بيته أو الشارع.

وحينما سنحت الفرصة ليعمل ضمن (الكومبارس) ويعتلي خشبة المسرح للمرة الأولى شعر برهبة كبيرة ودوار شغله عمّن حوله ناسياً شكله وهيأته وربما اسمه، وحينما لاحظ عليه المخرج ذلك طمأنه وشجعه قائلاً:

- ما بك يا (صبيح)؟ هل أنت خائف؟ أراك تتصبب عرقاً وأصابعك ترتجف ما بك؟ هل تحب أن أستبدلك؟

كانت هذه الكلمة كماء بارد صُب على وجهه فعاد إليه رشده فقال بحماس:

:لا .. لا أرجوك كيف تستبدلني فأنا بخير.

المخرج: أسمع يا (صبيح) الجمهور لا يعذرك ولا يعذرني وليس من شأنه أن تكون المرة الأولى لك على خشبة المسرح، الجمهور يريد أن يرى عملاً متكاملاً، فقد دفع لأجله المال وفرّغ نفسه وأعطانا وقته ليستمتع بشيء مفيد هل تفهم ما أقول؟

صبيح: نعم أستاذ أفهم.

المخرج: إذا فهمت ذلك فأعلم أن الجمهور لا ينظر إليك وحدك، الجمهور ينظر إلى الممثل الذي يتحدث أو يتحرك، أما أنت فلست وحدك، أنت واحد ضمن مجموعة ازياؤكم موحدة وحركتكم موحدة ولا شيء يميز أحدكم عن الآخر هل فهمت؟

صبيح: نعم ..نعم .

لم يفهم (صبيح) كلام المخرج كله لأنه تحدث بكلمات ومصطلحات جديدة عليه فذهب إلى (حسيبة) في وقت الاستراحة من التمرين وسألها أن تفهم من المخرج ما الذي يريده منه، وبين لها أنه فهم بعض الكلام ولم يفهم الكلام كله.

ابتسمت (حسيبة) له وقالت:

- لا تخف (ريو) سأتحدث مع المخرج أو مدير المسرح بهذا الخصوص وأعرف المطلوب.

هكذا كان (صبيح) يتعلم شيئا فشيئا ومما أعانه على ذلك رغبته الجامحة للتعلم وتحقيق أحلامه وتعاون (حسيبة) ومدير المسرح معه لقد كان رجلاً محظوظاً يحب عمله ويتعاون مع الجميع.

لم تثمر جهود صبيح في العمل المسرحي فقد كان مرتبكا طيلة أيام التدريبات، وعندما حان موعد (الجنرال بروفا) زاد ارتباكه على خشبة المسرح، مما حدى بالمخرج أن يؤجل مشاركته في هذه المسرحية إلى أعمال أخرى قادمة. عندما يكون أكثر استعدادا، فقال له من بعد نهاية العرض التجريبي:

-(صبيح) أنت إنسان طموح وترغب أن تعمل بإخلاص، ولكن يا عزيزي العمل المسرحي قائم على تكاتف وتناسق جهود متعددة، واي خلل في مفصل من مفاصل العمل يُحدث خلة ويؤثر على الآخرين، ولاسيما أن نقاد الفن لا يرحمون أحد، عيونهم وآذانهم مفتوحة وأقلامهم مشرعة لتمزيق ما لا يروق لهم، فهم لا يسامحون أحداً بحجة أنه يمثل للمرة الأولى، لذا يا عزيزي سنؤجل مشاركتك في هذه المسرحية حتى تتمكن من الأداء الأفضل في مسرحيات قادمة.

صبيح: (وقد خارت قواه وتبددت أحلامه) نعم أستاذ كما تُحب.

ثم خرج وهو يحمل الهم والغم، ليجلس في المقهى لعله يتمكن من ابتلاع هذه الصدمة والاحباط وهو يرتشف قهوته وعقله مشغول باسترجاع ما حصل له وكلمات المخرج تدق الطبول في راسه فيزيد ارتباكه وأفكار العودة والفشل تراود مخيلته فتضطرب أعضاؤه ارتجافا خفيا لم يحو منه إلا وفنجان القهوة ينسكب أمامه على المنضدة حتى وصلت قطراتها على بنطلونه وحذائه ثم الرصيف وهو ينظر إليها آسفا محدثاً نفسه:

- إيه يا (صبيح) يبدو أن السقوط حليفك الدائم، فأنت كهذه القطرات أما أن تبتلعك الأفواه أو تسقط متقلبا ما بين الأقدام على رصيف الأقدار، متى تستفيق من غفوتك وأحلامك البائسة؟ متى تكون مثل هؤلاء الذين يعرفون قدر أنفسهم وقدراتهم؟

إلى متى يدوم معك هذا الحلم؟ جئت به من الحلة إلى إسبانيا ومازال يأكل أيامك من دون جدوى، متى تستفيق؟ متى ايها الوغد الحقير (وهنا ارتفع صوته مثيراً انتباه جلاّس المقهى والمارة وهم يستمعون له ، ولم يستفق من جلد ذاته إلا وهو يرتفع من كرسيه بقوة وإذا بعيونه تلتقي بعيون ذلك الزنجي الحمراء المفتول العضلات وهو يصرخ في وجهه): ماذا قلت؟ كرر ما قلته لأريك من هو الوغد الحقير، أيها الصعلوك المهرج. و (صبيح) ذاهل عما يجري، حتى تدخل صاحب المقهى لينقذه قائلا:

- اتركه، إنه فنان يتدرب على أحد الأدوار، وحينما أنزله إلى الأرض شاهد الفرق بينه وبين الزنجي فقال من دون تفكر:

- نعم، نعم يا سيد أنا أتدرب على الدور (وهو يتراجع بخطوات إلى الوراء محاولاً الفرار) أنا ممثل معروف ألا تعرفني.

ولما أحس أنه ابتعد مسافة عنه، أدار ظهره فرأى عمال المقهى وبعض الزبائن يراقبون ما يجري، وعندما رأوه يهمُّ بالخروج أخذوا يصفقون له، ظنا منهم أنه يمثل.

فقال متوجهاً بكلامه إلى الزنجي:

-ألا ترى، ألا ترى الجمهور؟ أنا ممثل معروف.

ثم خرج من المقهى راكضاً، وحينما التفت إلى الوراء خوفا من الملاحقة، اصطدم بشخص آخر يشبه ذاك المفتول العضلات فقال صبيح:

-لقد اعتذرتُ، لقد اعتذرتُ من أخيك (وراح يواصل هروبه، وهو لا يدري أي اتجاه يسلك، حتى إذا اضناه التعب جلس على طاولة مطعم صغير على الرصيف وقد وضع رأسه بين يديه وهو يردد: ما هذا، ما الذي يحصل اليوم، لقد حشّدوا عليّ، لقد جاء إخوته، ولم يصح من خوفه إلا وعاملة المطعم تناديه:

-سيدي، ماذا أقدم لك؟

فرفع رأسه فزعا، وحينما رآها سيدة خمسينية بدينة سمراء بادرها قائلاً:

-سيدتي لقد اعتذرت من ابنك، أنا آسف كنت. (فقاطعته)

-سيدي ليس لي أبناء ما زلت آنسة (وقد وضعت يدها تحت خصرها بحركة غنج وتألق، رافعة حنكها بشموخ إلى الأعلى).

صبيح: ها .. يعني أنت لست أم ذلك المفتول العضلات؟

النادلة: أي ابن يا سيد؟ قلت لك ما زلت أنسة (وهي تعيد نفس حركتها) .

صبيح: آه. نعم، يبدو أن الأمر قد اختلط عليّ.

النادلة: والآن، ماذا تحب أن تأكل؟

صبيح: أكل؟ آه ..نعم.. لا شكراً سأغادر الآن (وهو يتحسس جيبه) لقد نسيت محفظتي.

ثم توجه تلقاء الباب خائر القوى عائداً إلى بيته وهو يردد:

-ما هذا اليوم؟ ماذا فعل بي المسرح، لن أقترب منه مرة أخرى، آه ربما كانت لعنة التمثيل.

***

اليوم (صبيح)يشعر بمغص في بطنه وعيونه لا تكاد تستقر في مكان حتى تنتقل إلى غيره وهو يتفحص أرجاء معهد (متروبلي) وقد دخله للمرة الأولى وهو يحمل صفة (طالب) ، هواجس خوف وفرح غامر اختلطت في نفسه وسببت له الارتباك وبرودة الاطراف والمغص الذي كان يخبو ويعلو حتى أنه سأل صديقه (محمود):

-أين التواليت؟

محمود: (ضاحكاً) تعال معي من هنا.

قضى (صبيح) حاجته وارتاحت نفسه من بعد أن شرب كوباً من الشاي ليصحبه (محمود) إلى القاعة الدراسية مثيراً ذاكرته الطفولية، لما أودعته أمه في رواق المدرسة الشرقية الابتدائية في الجامعين.

محمود: اسمعني يا (صبيح) هنا ستجد الدراسة تختلف تماماً عمّا عرفته في بلدك هنا الدراسة تعتمد عليك بشكل كبير، فيجب عليك أن تلاحظ وتحفظ وتكتب كل ما يقال لك، ولا تشغل نفسك بعلاقات أخرى واحذر من زملاء السوء.

صبيح: زملاء السوء؟ حتى هنا؟

محمود: نعم حتى هنا وما الفرق، وهل تعتقد أنك في الجنّة الناس كلهم سواء والمجتمعات متشابهة فيهم الصالح وفيهم الطالح.

صبيح: ما الذي يمكن أن يفعلوه؟ اقصد مم تحذرني؟

محمود: المخدرات والقمار والأعمال المشبوهة والعلاقات الجنسية.

صبيح: لقد خوفتني يا رجل.

محمود: يجب عليك ذلك حتى لا تضيع في زخم الحياة الأوروبية كما ضاع غيرك وتنسى أحلامك وأهدافك.

دارت كلمات (محمود) في رأس (صبيح) حتى أنه حملها معه إلى بيته وبات يفكر بها، وعقد العزم على أن لا يحيد عن أهدافه وتحقيق أحلامه محدثا نفسه:

- نعم يا (صبيح) كلام صديقي (محمود) صحيح في هذه المرحلة يتوجب على مواصلة الدراسة والحصول على أعلى المراتب لعلي أحصل على منحة، أما باقي متطلبات الحياة ستؤجل إلى وقتها.

استمر (صبيح) يجدُّ ويكافح بإصرار كبير حتى تمكن من فهم اللغة بما يعزز دراسته واجتهاده، فزادت قراءاته اتساعاً ففكر أن يجرب حظه خارج مسار الدراسة فعرض على مدير المسرح أن يقدمه لأحد المخرجين ليقوم بأحد الادوار.

لقد كان (صبيح) سعيد الحظ عندما اختاره أحد المخرجين ليقدم دورا في إحدى أعمال المسرح التجريبي حيث يُقدم فيها مشاهد من فترات تاريخية ومعاصرة مختلفة ، فنجح في تقديم الدور وأُعجب به الجمهور ، وهكذا كلما كان الدور مناسباً لشكله ولكنته تكفل بأدائه ،

وتطور به الأمر حتى صار يحاول كتابة بعض المشاهد المسرحية ويعرضها على زملائه المخرجين الهواة من بعد أن تقدم في الدراسة وتجربته العملية في المسرح ، لكنهم انتبهوا إلى حبه للمواقف الدرامية والشخصيات المعقدة التي تثير في الناس الحزن تارة والقوة والصلابة تارة أُخرى فقد كان (صبيح) مأخوذا بشخصيات وأدوار ممثلين قد رآهم وتابعهم.

فكر (صبيح) أن يجرب حظه في الإخراج المسرحي، فكتب فصلا مسرحيا وقدمه للمنتج، وحينما دار النقاش عن أحداثه وشخصياته، استطاع إقناعهم من بعد أن اقترحوا عليه بعض التعديلات.

انجز (صبيح) عمله بحسب الآليات الاكاديمية التي تعلمها حتى إذا جاء يوم العرض الأول عاش الارتباك والتوتر فقد كان يوما مميزا في حياته، وعندما فُتحت الستارة معلنة بدء المسرحية كان حضور الجمهور كما عهده العاملون في المسرح، لا هو كثير ولا قليل، ولكن الذي لم يكن معتاداً عندهم تفاعل الجمهور الذي أبدى برودا أثناء العرض جعل الممثلين يشعرون بالإحباط ولا سيما أن بعض المشاهدين قد انسحبوا من العرض ولم يكملوه.

فجلس (صبيح) في غرفه المكياج مطرقاً متأملا الذي حصل حتى دخلت عليه (حسيبة) قائلة:

- (ريو) ما بك؟

صبيح: (نظر إليها بوجه جامد المشاعر ولم يجبها).

حسيبة: عجيب أمرك، ما بك؟

صبيح: ألا تعرفين ما بي؟ هل رأيت الجمهور؟

حسيبة: (ريو) وهل تريد النجاح من أول خطوة تخطوها؟

صبيح: لكن ما السبب؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟

حسيبة: لقد قدمت ما تريده وما تعتقد أنه ناجح ورأيك وعملك أنت حرٌ كيف تقدمه.

صبيح: لكن الجمهور لم يقبله.

حسيبة: إذن اسأل الجمهور.

صبيح: (متحيراً) كيف؟ هل أذهب إلى بيوتهم لأعرف ما الذي لم يعجبهم؟

حسيبة: (ضاحكة) لا ليس هذا ولكن أنتظر، ستظهر الآراء في الصحف وحلقات النقاش وآراء النقاد.

صبيح: يا ويلي، النقاد؟

حسيبة: هل تخاف منهم؟

صبيح: أكيد أخاف منهم فأحكامهم مقنعة للجمهور.

حسيبة: أنهض إلى بيتك وخُذ قسطاً من الراحة وغداً نتحدث.

صبيح: غداً؟ وهل سيحضر الجمهور غداً؟

حسيبة: أذهبْ الآن وغداً يأتي بما عنده، لا تتعجل الأمور فليس بيدك شيء تفعله، العرض المسرحي ظهر للعيان وصار تحت طائلة النقد.

طرق الباب محمود قائلاً:

- مرحباً، كيف حالك سيدتي، هيا (صبيح) ما بالك جالس.

حسيبة: أهلا، تفضل خذه معك ليرتاح.

نهض (صبيح) مع صديقة محمود وزوجته الإسبانية متوجهين إلى بيته وصبيح ساهم لا يتحدث ولا يرفع رأسه من الأرض فبادره محمود قائلاً:

- كم واحدة؟

صبيح: ها، ماذا؟

محمود: بلاط الرصيف، كم واحدة أحصيت؟

صبيح: (نظر في وجه محمود متأسفاً حزيناً ثم عاد ينظر إلى الأرض).

محمود: هل ترغب بكوب من القهوة؟ ألا تأكل؟

صبيح: القهوة؟ نعم.

جلسوا في أقرب مقهى صادفوه في طريقهم يشربون القهوة ويتناولون شيئا من البسكويت والصمت سائد بينهم إلا من بعض الهمسات ما بين (محمود) وزوجته.

محمود: (صبيح) أنت فنان والآن بدأت تشق طريقك، فلا تيأس من أول عثرة هذه خطوة دعها خلفك وأبدا الخطوة الثانية، فخطواتنا مكانها خلف ظهورنا.

صبيح: نعم كما تقول لكنها تجربة صعبة سأحاول تجاوزها.

في اليوم التالي حينما ذهب صبيح إلى عملة كان يقلب صفحات الجرائد لعله يجد ما يبرد حيرته إلا أنه لم يجد شيئاً، بحث في اليوم الذي بعده فلم يجد حتى أنه يأس واكتفى بملاحظات زملائه في مسرح الهواة، لكنه تفاجأ حينما عرض زميل له مسرحية أن الصحافة كتبت عنه ففكر في نفسه: لماذا؟ هل أن عملي سيء إلى هذا الحد؟ لا أعلم.

في أحد الأيام دار حديث بينه وبين (محمود):

محمود: صبيح، أراك دائما تحب الشخصيات الدرامية، بينما كنت معجباً بشخصية (ريو دي نيرو) وهو ممثل أدى أدواراً متنوعة ولم يبق على نمط واحد.

صبيح: نعم كما تفضلت أنا أُحب أن أكون هكذا.

محمود: ألا ترغب بالتغيير وتجربة أنماط مختلفة من الشخصيات وتتخلى عن هذا النمط المحزن وشخصياته؟

صبيح: كيف لي أن اتخلى عن ماضٍ طويل وأحلام عريضة وشخصيات نامت في عقلي؟ كيف؟

محمود: ولكنك نسيت نفسك، نسيت صبيح.

صبيح: الحزن هو أكثر شيء في الوجود.

محمود: الحزن يقابله الفرح، والبكاء يقابله الضحك، أنهما متقابلان متعادلان، لماذا تميل إلى أحدهما وتترك الآخر؟

صبيح: هكذا أنا... هكذا صرت وكبرت.

محمود: يا أخي أنت في الحياة، وهي أكبر منك ومن أحلامك.

صبيح: يوه ... الضحك ممل وسطحي.

محمود: أنت تضحك وتبكي وتفرح وتحزن هل مللت من الحياة؟ لماذا أنت متمسك بها؟ لماذا جئت إلى مدريد هل جئت لتنشر الحزن فيها؟ وهل الناس بحاجة إلى الحزن، يا أخي يكفيهم ما هم فيه، أنظر إليهم (وأشار بيده إلى الناس من خلال الشرفة) لكل واحد منهم همه وحزنه وفرحه وبكاؤه وضحكه لماذا أنت تحكم عليهم بالحزن فقط؟

صبيح: أنا لا أحكم، هم كذلك.

محمود: لو أن مسرحياتك تتحول إلى واقع، قل لي بربك كيف ستكون الحياة؟

صبيح: (صمت قليلا ثم قال) حزن وبكاء ومناديل ورقية (يضحك).

محمود: أها.. أنظر .. أنت حوّلت الحديث إلى فكاهة.

صبيح: نعم فقط أردت أن أغير الحديث.

محمود: نعم ... وهو كذلك. يتميز الحزن عندما يكون هنالك فرح ويتميز الضحك عندما يكون هنالك بكاء... لا بد من الاثنين.

صبيح: الحزن أكثر تأثيراً على الآخرين.

محمود: ولكن الحياة فيها من هذا وذاك.

صبيح: نعم .. لكن الحزن هوايتي ولن أقدر على التخلي عنه.

محمود: أذن أبق كما أنت وأنسَ صبيح.

صبيح: (لا يرد)

نظر محمود إلى ساعته وقال:

محمود: حسناً عزيزي صبيح أستأذنك لابد لي من العودة إلى البيت أراك بخير.

صبيح: طيب عزيزي تصبح على خير.

لم يتمكن صبيح من النوم في تلك الليلة فنزل يستنشق الهواء على ضفاف نهر (مانثاناريس) متأملاً الناس والسماء الصافية بنجومها المتلألئة، وتردد الأمواج الهادئة وهي تناغم احجار الضفة، ومن هناك يأتيه صوت المتحاورين، و تارة تعلو الضحكات من الشباب وهم يمرون به بغنائهم و مزاحهم، فجلس على أريكة الرصيف محدثاً نفسه ومتأملاً كلام (محمود) ثم عاد إلى بيته ليغط في نوم عميق.

***

في أحد الأيام ذهب (صبيح) إلى المسرح كعادته فنادته حسيبة:

حسيبة: (صبيح) هل علمت بالخبر؟

صبيح: لا .. أي خبر؟

حسيبة: ستقام مسابقة للهواة على هذا المسرح هيئ نفسك لعمل جديد فالمسابقة يحضرها نقاد الفن والمخرجون المحترفون وهي فرصة جديدة لك.

صبيح: أكيد هذا الخبر آنسة (حسيبة)؟

حسيبة: نعم صحيح، أذهب واختر نصاً لتخرجه والموعد بعد شهر من الآن وبإمكانك أن تشترك مع زملائك ممثلاً أن احببت.

صبيح: آه.. الوقت ضيق جداً.

حسيبة: نعم لكنهم أعطوا لكل مسرحية وقتاً محدداً، فالمسرحيات التي تشترك في المسابقة يجب أن تكون من فصل واحد.

صبيح: إذا كان كذلك فلا بأس، عن إذنك سأذهب لأرى ما يمكنني فعلة.

خرج صبيح وكله عزيمة على تقديم أفضل ما عنده، فقلّب أوراقه وكتبه وما جاد به قلمه ليختار النص المناسب ويتلافى الإحباط الذي تعرض لهم في تجربته السابقة، مذكرا نفسه بكلمات صديقه(محمود) فلم يهمل أو يتناسى أي كلمة منها على الرغم من قسوتها، فقد كانت كمبضع الجراح، جعلته ينظر إلى أمره بواقعية، فالأحلام لابد لها أن تصطدم بأرض الواقع فيرسخ منها ما كان متوافق مع المجتمع الذي يحيا فيه ويبقى الحلم البعيد المنال، حلماً يداعب الخيال، وربما يأتي اليوم الذي يتحقق فيه. إلا أن دوامة الأحلام التي وضع نفسه فيها ما زالت تجذبه إليها، فحاول أن يُقنع نفسه بأن يكون إسبانياً كما المجتمع الذي يحيى فيه، فجمع نصاً أخذه من هنا وهناك وقدمه للمسابقة ولما وافقوا عليه استعان بالمخرجين والممثلين (الإسبان) ليقدم عمله اسبانياً خالصاً.

حتى جاء يوم العرض الخاص (جنرال بروفا) حيث اجتمع بعض النقاد وأهل الصنعة فعرض مسرحيته وحاز على إعجاب بعض النقاد الذين قدموا له النصائح والمقترحات فأخذها بجدية وعمل كما اقترحوا عليه. مستبشرا خيراً بما آلت إليه الأمور، فها هو عمله صار كما يحبه (الاسبان) فقد اجتهد على أن يذوب فيهم ولا يترك لنفسه إلا ما يحبونه، آملاً أن تكون هذه المشاركة نقطة انطلاق نحو الشهرة الفنية العالمية، فها هو عمله متوافقاً تماماً مع المجتمع وها هي صنعته (إسبانية) خالصة.

وفي يوم العرض جهز نفسه ولبس أجمل ما عنده من الثياب (الإسبانية) محدثاً نفسه بكلمات سيلقيها على مسامع النقاد والجمهور حينما يدعونه لاستلام جائزته.

***

في يوم النتائج كان (صبيح) في قمة التوتر على الرغم من تطمينات صديقه (محمود) وزوجته وكلمات (حسيبة) المشجعة ولم ينتبه من تأملاته إلا على صوت تصفيق الجمهور عندما ارتقى المسرح أحد الممثلين المشهورين عريفاً لحفل توزيع الجوائز.

أعلنت الجائزة الثالثة كما هو السياق فقال في نفسه: ربما الجائزة الثانية من نصيبي فكان إعلان الجائزة الثانية محبطا له ولكن نفسه كانت مترددة ما بين اليأس والجائزة الأولى التي كان لا يأمل الحصول عليها ولكن لعل الحظ يميل نحوه هذه المرة.

فغاص في مقعده وعيونه شاخصة إلى بعيد ونفسه مضطربة ما بين الحسرة والندم، فها هو في هذه اللحظة كطفل فقد أمه، وصار كالمرجل يتوقد ناراً، لم يسمع أصداء التصفيق ولم يسمع كلمة مما قاله صاحب الجائزة الأولى فأحس بضربات صديقة (محمود) على كتفه قائلاً:

محمود: (صبيح)..(صبيح) ما بك يا صديقي هل ترغب بالخروج؟

صبيح: لا ... دعني أرى ما يحدث.

محمود: (صبيح) عزيزي لا تؤذي نفسك أنت في مسابقة للهواة كل الذين حصلوا على جوائزهم مثلك، ما زالوا هواة أمامهم درب طويل.

حسيبة: (صبيح)... ما بك يا عزيزي، أنت فنان ولك طريقتك الخاصة ولك أسلوبك، أنت طالب فن و ما زلت في بداية الطريق لم هذا التأثر.

صبيح: هم ليسوا أفضل منّي، لقد قدمت المسرحية كما قالوا لي قدمتها كما يحبه (الاسبان).

وهنا صدح في القاعة اسم المسرحية التي كتبها وأخرجها (صبيح) فأنتبه بدهشة هو واصدقاؤه متسائلا:

صبيح: ماذا. ماذا قال؟

فرأى بطلة المسرحية وهي ترتقي المسرح لتستلم جائزتها كأفضل ممثلة ثانوية، ثم تقدمت إلى الميكروفون لتقول:

الممثلة: أنا سعيدة بهذه الجائزة كثيراً، أشكر لجنة التحكيم، شكراً للذين عملوا معي في هذه المسرحية وشكراً للكاتب والمخرج (صبيح) ثم نزلت وهي فرحة بجائزتها.

صبيح: هل سمعتم جائزتي، أنها (شكرا للكاتب والمخرج صبيح) يا ترى أين سأعلقها على أي جدار؟ أكيد سأعلقها على جدار الخيبة. (يضحك) شكراً هذه جائزتي (ثم نهض من مكانه وصاح بأعلى صوته): عفواً عزيزتي الممثلة الثانوية، أنا أشكرك لأنك شكرتيني (ثم جلس في مكانه واصدقاؤه والحضور يحدقون به متعجبين).

حسيبة: مع (نفسها) آسفة جداً لما يحصل لك يا (صبيح).

محمود: (صبيح) يا صديقي هل ستمر هذه الليلة بسلام؟

وبعد برهة سمعوا أسم المسرحية يُذاع مرة أخرى معلنين فوزها بجائزة الديكور المسرحي، لكن (صبيح) بقي ساكناً في مكانه وعيونه تترقب مصمم الديكور وهو يستلم جائزته ويشكر لجنه التحكيم والعاملين والمخرج. فنهض (صبيح) من مكانه واقفاً وهو يصيح بأعلى صوته: عفواً يا صديقي مصمم الديكور، أنا أشكرك لأنك شكرتني.

حينما رأى اصدقاء (صبيح) هذا السلوك المُستغرب منه أيقنوا أن حالته النفسية متأزمة ولا بد من مغادرة المكان، فسحبه محمود من ذراعه قائلا:

محمود: هيا أنهضْ معنا ولا ترتكب حماقة أخرى هيا أرجوك.

حسيبة: نعم ...هيا نخرج فالأجواء هنا صارت متعبة.

نهض (صبيح) معهم بكل برود وهم يقودونه كأنه الدمية، وحينما وصلوا إلى الشارع سأله (محمود):

هل تُحب أن تذهب إلى البيت؟

حسيبة: لا أي بيت أن بقي وحده فلن ينجو، دعونا نتمشى أو نجلس في مقهى.

أما (صبيح) فقد بقي مشغول البال لا يدري ما حوله، منقاداً إليهم ولم تتحرك شفتاه بكلمة واحدة بل راح معهم بصمته وحيرته مما جرى.

حسيبة: ذاك مطعم هادئ فيه أماكن مريحة لنذهب إليه فأنا أشعر بالجوع.

توجهوا إلى المطعم وجلسوا في ركن منه، ولما جاءهم النادل طلب (محمود) الطعام لهم جميعاً، وعندما انتبهوا إلى (صبيح) وهو يأكل بشراهة ولم يبق في أطباقه شيء سألته (حسيبة):

- عزيزي هل أطلب لك شيئاً آخر تأكله؟

صبيح: نعم. بسكويت آكله مع الشاي.

جاءهم النادل بالشاي والقهوة وقطع من الكيك والبسكويت التي طلبتها حسيبة فعاد (صبيح) إلى شراهته يأكل ويشرب وكأنه في سباق، وعندما أشعلت (حسيبة) سيجارتها طلب منها واحدة فأعطته بلا تردد فراح يسحب منها أنفاساً وينفثها مع نوبات من الكحة حتى بان احمرار عينيه ودمعهما، فقال (محمود):

- صبيح لم أعلم أنك تدخن السيجار.

صبيح: نعم من هذه الليلة ابدأ.

محمود: عجباً. وهل.

صبيح: (مقاطعا) من الآن سأكون كما أريد.

حسيبة: أفعل ما تحب يا عزيزي ولكن لا تؤذي نفسك.

صبيح: بما أني محط اهتمامكم هذه الليلة وفزت بكم أصدقاء وأحبه سأسمح لنفسي بالدلال عليكم، ولا سيما أصبحتُ الليلة من المشاهير (ساخراً).

حسيبة: نعم (وهي ضاحكة) سنحتفل بك اليوم، قل ما تريد؟

صبيح: أرغب في الذهاب إلى أعلى مقهى في (مدريد) لأجلس قبالة النافذة وانظر اليها من هناك

محمود: أعلى مقهى؟ أظنه...؟ (ثم توجه إلى زوجته) متسائلاً:

-هل تعرفين أين يكون؟

الزوجة: نعم إنه هناك قرب النهر توجد بناية عالية في آخر طابق يوجد مقهى ومطعم.

حسيبة: نعم ويوجد في حي قريب مقهى لأحد إخواننا التونسيين يطل على المدينة من بعيد، مفروش بالبسط العربية الزاهية الألوان، ماذا تفضل أيها المُحتفى به (مبتسمة).

صبيح: إخواننا التونسيون.

توجهوا إلى حيث أشارت (حسيبة) واختاروا أقرب مكان إلى النافذة حيث يطل (صبيح) على والمدينة من هناك لعله ينعم بالراحة والهدوء. فكر محمود ربما تكون فرصته للتخفيف من أثر الصدمة على (صبيح) ولما رآه وفي عينه رغبة في الكلام قال له:

محمود: صبيح هل ارتحت؟

صبيح: نعم شربت الصدمة وفوقها هذه القهوة التونسية الطيبة، قل ما تريد.

محمود: أنت قل ما في نفسك ونحن الآن وبكل هدوء وهذين الوجهين الحسنين (واشار إلى زوجته وحسيبة مداعباً) وهذه الاضواء الجميلة تتراقص تحت أنظارنا ليكون حديثنا ودياً دافئاً بلا انفصال.

صبيح: حسناً، لماذا ابعدوني عن اضوائهم؟ (حسيبة) هل ترين في عملي ما يستحق ذلك؟

حسيبة: لا، أنت قدمت ما عندك بحرفية الأكاديمي.

صبيح: قدمته كما يريدون فماذا بعد ذلك؟

محمود: صبيح هل أنت (إسباني)؟

صبيح: نعم حصلت على الجنسية.

محمود: صبيح هل أنت (إسباني)؟

صبيح: ما بك (محمود) تكرر السؤال، آه... نعم فهمتك صرتُ اسبانياً، كنتُ عراقياً وصرتُ اسبانياً ثم ماذا؟

محمود: أنت تقول هذا، ولكن هم ماذا يقولون؟

صبيح: عراقي.

محمود: لماذا يعطونك أنت الجوائز ولا يعطونها لأبناء بلدهم لماذا؟

صبيح: (مقطباً حاجبيه وكأنه تنبه إلى شيء غريب).

محمود: لماذا يكتبون عنك ويتركون ابناءهم؟

صبيح: هم كتبوا عنهم.

محمود: نعم كتبوا عنهم ولكن لماذا يخلقون لهم منافساً غريباً؟

صبيح: غريب؟

محمود: نعم في أقبيتهم وخلف الستائر يعرفون أنك غريب.

صبيح: ولكن الفن هو الفن في كل مكان ألم نشاهد أفلامهم تعرض في بلداننا ألم يكتب عنهم نقادنا؟

محمود: يا عزيزي أنت تشاهد أفلامهم نعم، تكتب عنهم نعم، تُعجب بهم نعم، لكن تنافسهم كلا ممنوع، تأتي إليهم تدرس عندهم تقدم أفضل ما عندك هذا امر جيد لهم لأنهم صنعوك، ولكن ضمن حدود ضمن دائرة لا يسمح لك بتجاوزها.

صبيح: عجيب هذه مبالغة.

محمود: هم يفتخرون بك حينما تتحرك ضمن الدائرة التي رسموها لك ليقال إن (صبيح) درس عندنا، نحن الذين علمناه قطع المسافات الطويلة وتغرب وجاء عندنا لأننا نحن الأفضل.

صبيح: لكن هنالك أسماء عربية بارزه هنا.

محمود: قارنها بأسماء ابنائهم وستعرف الحقيقة، لو بعت كل ما عندك إليهم فلن تكون غير عراقي.

صبيح: ولكنك جئت إليهم وتزوجت منهم.

محمود: وهل رأيتني مزاحما لهم؟ أنا اتحرك ضمن الحدود لأعيش في راحة.

صبيح: ومستقبلك وآمالك؟

محمود: احققها ضمن الحدود أيضاً، (صبيح) ما بك يا أخي إلى متى تبقى بهذه الأحلام؟ يا اخي أنت هنا على الأرض. ثم توجه بكلامه إلى (حسيبة) التي بقيت صامته مطرقة تسمع كلامهما.

محمود: (حسيبة) قولي رأيك تكلمي أنت هنا قبلي ومنذ زمن.

حسيبة: يؤسفني يا صبيح أن أراك وقد رسمت في مخيلتك مجتمعاً ورديا لكن الواقع كما سمعته.

التفت (صبيح) إلى زوجة (محمود) فرآها تنصت إلى الكلام وجهها في وجه زوجها.

صبيح: وزوجتك ما تقول؟

محمود: أسالها هي تسمع.

صبيح: ما تقولين أيتها السيدة زوجة صديقي العزيز؟

الزوجة: (مبتسمة) لكل واحد منا رأيه وهو حر في ذلك، أنتم ترون ذلك لأن إحساسكم بالغربة هو الذي يحرك مشاعركم، وربما يكون كلامكم صحيحاً، و لا يوجد لدي استطلاع رأي لأعرف اتجاهات شعبي نحوكم ، المهم عندي الان أني أحبُ زوجي وهو يحبني ولا شأن لي بغير ذلك.

أبتسم (صبيح) من صراحتها وقال:

سيتخمر كلامكم هذا في رأسي ولا أدعه يفلت مني، ولكن الآن دعونا ننسى، كلوا واشربوا على حسابي فأنا صاحب الشهرة وشاغل النقاد (ضحك بصوت عال فضحك معه الجميع فرحين بعودته من حسرته وآلامه).

***

عاد (صبيح) إلى حياته الاعتيادية ولكن في نفسه يتردد الكلام كل يوم كلما جلس وحده تذكر ذاك الحوار الصريح مع محمود وزوجته وحسيبة وفي إحدى الليالي عاد إلى بيته ماشياً متفكرا:

-متى تكون أنت يا صبيح؟ متى تترك الآخرين في حالهم؟ لقد خُلقت لتكون أنت وليس شخص آخر أما آن لك أن تصحو من حلمك الذي ضيع عليك سني عمرك؟ كم بقي لك لتحيا؟ كم بقي لك لتقلد فلاناً وفلاناً وهل تنتهي القائمة؟ أنهم يذهبون ويأتي غيرهم وأنت أنت تنتظر يأتون، كأنك مسطبة في محطة قطار إلى متى تأكل فُتاتهم أما آن لك أن تطهو لنفسك وتأكل من طعامك الخاص؟ إلى متى تكون مسطبة يجلس عليه الآخرون أما آن لك أن تكون.

***

الأب: (وهو يدق باب الدار) هيا افتحي يا أم (صبيح) .

الأم: نعم. نعم ما الخبر، يا رب أستر (وقد فتحت الباب).

الأب: (صبيح) سوف يعود (وقد سالت على خده الدموع متغلغلة بين تجاعيد خده).

الأم: بشرك الله بالخير، متى؟ يا ولدي الغالي يا عزيز قلب أمك.

الأب: هذه رسالته، سيصل بعد غد، هيا نظفوا البيت جيداً افتحوا غرفته وانفضوا الغبار عنها.

الأم: (وهي تدور في باحة الدار لا تدري ماذا تفعل من شدة الفرح) سأدعو فاطمة لتساعدني عندما يعود الأولاد.

الأب: نعم، اذهبي إلى بيت فاطمة وأخبري زوجها أيضا ليأتي معنا إلى المطار.

الأم: يا ترى هل سيتذكره؟

الأب: وكيف لا يتذكره، وقد كانوا سويا في المدرسة.

***

كانت قلوب عائله (صبيح) تسبق السيارة وهي متوجهة إلى المطار فقد كانوا يتمنون لو أن المسافة تُطوى لهم، ولما وصلوا، توجهوا إلى صالة الانتظار وعيونهم ترقب السماء وآذانهم صاغية إلى مذياع المطار.

حطت الطائرة في أرض المطار و(صبيح) لا يطيق الانتظار فتجاوز من كان أمامه من المسافرين معتذراً لينزل السلم على عجل متلهفا ليلامس الأرض بكفيه ويطبع عليها قبلات الاشتياق ويعفر خديه بترابها ثم نهض ليكمل الاجراءات متوجها إلى صالة الانتظار ليُكَحِّل عيونه بأمه وأبيه وأخوته ويشبع صدره من عبير أنفاسهم وهو يعانقهم.

الأم: يا قرة عيني لقد كبرت، ما أجمل هذه الشعيرات البيض على رأسك ولحيتك.

صبيح: نعم يا أمي عشر سنوات من الفراق قد فعلت فعلها.

الأب: أهلاً بعودتك يا ولدي، فراقك أكل قلوبنا ومكانك الفارغ لا يملأه إلا أنت.

صبيح: نعم يا والدي كانت تجربة لابد منها لأعود إليك وأنا أكثر قوة للتمسك بكم وأُحقق احلامي هنا معكم فأنا بكم أكبر ومن دونكم تائه غريب.

الأب: نعم يا عيني أنت ثمرة بيتك وأرضك والثمار غضة طيبة في أرضها.

عادت العائلة بجمعها إلى الحلة وهم يتبادلون الذكريات الجميلة ومشاعر الحنين والاشتياق، لكن (صبيح) كان نادماً في قرارة نفسه لأنه عاد إلى العراق ولم يأت لأخته فاطمة بباروكة شقراء من صديقته (كرستينا) .

تمت بحمده تعالى

٢٠٢٣\١\٢٣

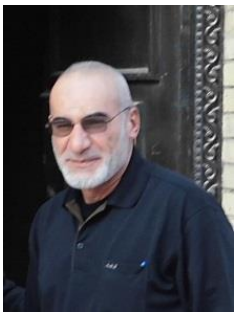

زياد طارق العتائقي

دبلوم رسم معهد الفنون الجميلة بغداد/١٩٧٩

بكالوريوس علوم تربوية ونفسية/بابل/٢٠١٢

المؤلفات:

الضغوط النفسية لدى طلبة الكلية التربوية المفتوحة.

مصادر الضغوط المهنية لدى معلمي التربية الفنية.

اتجاهات المشرفين التربويين نحو وظيفتهم.

الاشراف التربوي/ الابعاد النفسية للزيارة الأولى.

أصوات ما بين المطرقة والسندان/قصص قصيرة.

سمر في خيمة/رواية قصيرة

سلام بين ثنايا الحرب/رواية قصيرة